كُل ده كان ليه؟

الكتاب: كل ده كان ليه.

المؤلف: آلاء السقا.

الغلاف: آلاء السقا.

رقم الإيداع: 13370

الترقيم الدولي: 978 - 977 – 6886 – 45 – 2

المراجعة اللغوية: مكتب مدينة الكتب للخدمات.

الإخراج الفني: دار المدينة للنشر والتوزيع والترجمة.

رئيس مجلس الإدارة: محمود عادل محمود

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز لأي صورة نشر، أو اقتباس، أو إعادة طبع أي جزء من الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو كان أو بأي طريقة سواء أكانت إلكترونية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر.

العنوان4 ح جامع بلال– الشرابية - القاهرة

البريد الإلكتروني: Citybooks20@gmail.com

رواية

كُل ده كان ليه؟

آلاء السقا

المدينة
للنشر والتوزيع

إهداء صادق . .

إلى كل من يسعد قلبه حين يعلم أن الله يعلم بالنيات. إلى الفراشات الملونة، إلى أشعة الشمس الهادئة. إلى السحب القطنية المتشكلة. إلى النجوم، إلى السماء، إلى الصباح. إلى رائحة المطر، والطبيعة. إلى الهواء النقي، إلى لحظة لمس الإيمان لقلبي. إلى صوت تغريد الطيور. إلى الأشجار، والأمطار. إلى روائح الخبز. إلى الجمال. إلى الأكواب والأطباق ذات النقوش اليونانية. إلى الأبيض مع الذهبي. إلى الفن. إلى أكلتي المفضلة. إلى الرقة والخفة واللين. إلى نسمات الهواء في لحظة صيفية. إلى الشتاء الدافيء. إلى الشاي بالنعناع، رائحة القهوة الأنيقة، والشوكولاتة. إلى العائلة؛ الوطن الأول. إلى الحب. إلى الإنسانية والصدق. إلى كل انتقائي، وليس انطوائي. إلى كل نعمة من ربي. إلى شعور بالأمان، ولو للحظة.

إلى تلك اللحظة..عندما ترى نفسك بعين مُحب.

أما عن البعض الآخر، إهداء ..

إلى كل من لا يعرف كيفية التقدير. من يحتقر السلام، ويفخر بغلاظة قلبه، يبني أسوارًا أمام كل لطيف، ويجبر نفسه على القبح. قلوبكم تستحق فرصة لتتعرف على معنى "اللين".

جميلة وچوانا

أبطال روايتي

(جميلة)

الليل وسماه

ونجومه وقمره قمره وسهره

وانت وأنا

يا حبيبي أنا .. يا حياتي أنا كلنا، كلنا، في الحب سوا

أخشى الفقد، الاستيقاظ في الوقت الخطأ، اكتشاف أن ذلك كان مجرد هراء، وحلمي كان وهم، أن من أعطيتهم أحقية البقاء زائلون، أن يسبقني الزمن، تنتهي الطرق وأنا في المنتصف..

أخشى أن أصف نفسي يومًا بالتائهة، لأني ضللتُ كل الطُرق من البداية وكنتُ في غفلة، أخشى كثيرًا من تلك الأشياء الخبيثة.

عند وصولي..

بيت مكون من طابقين، بوابة ُمزينة بالورود، والأتربة أيضا، يوجد في حديقة ذلك البيت الجميل أرجوحة كنت أتمنى الجلوس عليها طيلة حياتي، من الواضح أن ذلك العجوز يعيش وحيدًا، فالأتربة راكدة فوق كل شيء، رغم جماله، الذي أكد لي أني سوف أساعد رجلًا يحمل روحًا في غاية الجمال، تشوقت لرؤيته! تختلط رائحة معطري الذي أفضله

برائحة ذلك البيت الدافئ، وفي الخلفية صوت العصافير، ما هذا المشهد الجمالي!

***

كفر عبده، الأسكندرية

منتصف ديسمبر، الساعة العاشرة صباحًا.

أنا محبطة، هل الحياة ممكنة أم مستحيلة؟

كعادتي؛ ثلاث طرقات على بابه، فأستمع صوتًا مليء بالحيوية يرد: «اتفضلي..» أتعجب، هل أستاذ (فارس) لديه ولدًا!

أدخل في حرج، ثم أفاجئ بمن أرى!!! «فارس ازاي!» فرد بإبتسامته الجميلة ووجهه البشوش: «أيوه أنا فارس»

أستاذ (فارس) لم يكن عجوزًا كما اعتقدت في بداية الأمر، بل أنه شاب وسيم، هاديء الملامح، معتدل الهيئة، شعره البني القاتم، بشرته الداكنة، لديه ما يكفي من الجاذبية في عينيه العسليتين البريئتين. تلعثم الكلام في فمي آنذاك، وتوترت، فكيف سأعيش معه؟ أساعده وأخدمه، بالتأكيد سيتوتر حياؤنا، في نفس ذاك الوقت؛ ما السبب في تقاعده هكذا؟! ما السر وراء هذا! لماذا أيضًا اختفى كل هذه الفترة ولم يخبرني بأي شيء مما حدث له.

وفي النهاية، وجدته هنا في تلك الحالة بعد طيلة المدة التي مرت بثقلها، أهم شيء أنني وجدته، أخيرًا.

كان يضع على عينيه الجميلتان غطاء، نظارة سوداء، ترددت في سؤاله، شعرت أنه لم يعرفني، أو لا يراني من الأصل، وكأنني غريبة، تحركت أمامه لأجده لم يلتفت لتحركي، شعرت في قلبي بغصة وقلق وشعور متخبط بشدة، إنه لا يرى بالفعل، ماذا حدث!

***

(چوانا)

الهواء المفعم برائحة المطر، تبدو الأمطار غزيرة بشدة، من المؤكد أنه موسم الأمطار قد أتى إتيان مفاجيء. وتمسكت أكثر بفكرة سفري إلى الريف. فهو ذلك الشعور الذي تشعر به عند كل صباح حين تهطل الأمطار على المنزل، أصوات قطراتها السريعة حين تتسابق في تساقط زخاتها بأصواتها المميزة التي تسمعنا أجمل المعزوفات الموسيقية مختلفة الأنواع، الشعور، والمعنى. فأحيانًا تصف السعادة، وأحيانًا أخرى الحزن، بل ومزجهما معًا أيضًا، أو وصف شعورًا مختلفًا تمامًا عما سبق. الأهم هنا أنها تصل إلى أرواحنا وتتناغم معها، وتصالح ذواتنا مهما بات بها.

تتفتح عيني على تلك الأصوات، تتقطب جبهتي لشعوري أنني بين الواقع ورؤى الأحلام، أستمر في محاولة استيقاظي، محاولة رؤية الغرفة بعين واحدة. تلك العادة الأمينة المنتظمة التي اعتادت عليها بسبب أمطاري.

أنهض مسرعة فور توجه عيناي نحو الساعة، لأذهب إلى النافذة حتى أسرق اللحظة التي أحبها؛ الشروق وقت المطر، أو حين قدومه، حيث السماء في صفوها رغم ما يتساقط منها، من أشياء بيضاء ثلجية جميلة، الشجر المهتز أمام المنزل يلوح إليَّ بابتسامته المبهجة، سعيد بإتيان الموسم دافيء الشعور رغم برودته. تقف الشجرة الملوحة فجأة بعدما

إمتلأت بالماء، فلم تَعُد تتحرك أو تُلَوِح. أهذا غدر؟ مثل الذي يعطي الـ ِود فينقطع عنه فجأة دون إنذار. أم أنني لا أعلم ما يخفيه بداخله فأعطي له عذرًا. أغضب قليلًا، ثم أنظر إلى الطرق التي امتلأت هي الأخرى بالماء المنهمر بعشوائية، فوق الأرض وكل ما بها. أنهي جولتي السريعة بعيني عند تلك اللحظة وأغلق ستائر ونوافذ الغرفة، أذهب إلى غسيل وجهي كما إعتادت فعله من نصيحة جدي (رشاد) الطيب الذي ينير قلبي. ثم إلى غرفته، أسرح في كل ما بها، أتذكر حين كان يحملني كي أنام، كان يجسد لي كل الأبطال الخارقين، «سوبر جدو» بصوته الحنون:

"نامي يا توتو نامي.. وأدبحلِك جوز حمامِ" اشتقت كثيرًا.

***

الإسكندرية

أعود لغرفتي وأرتدي ملابسي كاملةً؛ القميص الأبيض المتناثر فوقه نقاط خضراء أحب شكلها، شراب طويل ثقيل أسود يحمل نقاط سوداء بارزة، تنورة قصيرة سوداء وحذاء أسود لامعًا أخاف أن يتسخ أو توبخه الشوارع والأتربة في الشتاء، فوقي معطف يبتلعني، ثقيل لا أفضله ولكني أضطر لإرتدائه بناءً على رغبة الطقس، ورأفةً بجيوبي الأنفية. لا أتخلى على المنديل الذي لا أخرج إلا وهو مربوط حول عنقي. أدخل غرفة جدي، فأجد أشياءه جميلة كعادتها لكنها تفتقده مثلما يفعل قلبي، كان يقرأ القرآن في كل صباح فيجعلني أطمئن به، ثم ينظر إليَّ بعينه الرمادية البريئة التي لم أرَ في جمالها قط. رجفة صوته، وقبلتي له، وكأنه هو الذي يحتاجها، بل الأصدق أنني أنا من أحتاجها في كل صباح، رحمة الله على روحه الطيبة.

إلى ((الآتيليه)) التي افتتحته لي أمي في ((روف)) منزلنا، بعدما أذهب لعم (فريد) صاحب مشتل الورد الموجود آخر شارعنا.

أسير ببطء شديد وألاحظ شخصًا يحاول أن يسابقني في المشي رغم سيري البطيء هذا. ينبض قلبي وأحاول الإسراع حتى يأتي هو أمامي فأجده (أصيل) صاحب الاسطبل الذي أتعلم فيه ركوب الخيل:

- إيه يا بنتي بجري وراكي؟ انتِ نازلة لوحدك الصبح كده رايحة فين؟
- اتخضيت بحسبك واحد تاني
- لأ ماتخافيش، انتِ رايحة فين؟

- مشتل الورد أجيب زرعة جديدة للآتيليه بتاعي
- انتِ عندك آتيليه! حاولت تقليل الكلام، فبلا تفكير أبادر بالسير وأنا ألوح له سلامًا، وهو يقف في ذهول من فعلي الغريب.

لا أذهب إلى المشتل وأعود إلى منزلي مسرعة.

حيث اللوحات والفرش والألوان، بعض الأقمشة والتوالات المخضعة بها، الزيت والماء والحوائط، وأهم ما أحب؛ الجبس والخشب والطين والبلاستوسين والصخور، الإزميل مختلف الأشكال، السكاكين ذات الرؤوس المختلفة. الصلصال، الجير، الخشب والمبارد وغيرهم.

أجلس ومن حولي التماثيل التي صنعتها يداي. أريد إنجاز ما بيدي، فإن السنة أوشكت على الإنتهاء، ومشروع التخرج مرهق للغاية لكنه ممتع أيضًا، أريد إنجازه لكي لا أرى دكتور (كامل البدراوي) الذي يطالبني بالزواج أم الرسوب، لكني سأفتقد دكتور (أحمد) الذي يدعمني وله فضلًا كبيرًا في كل ما تعلمته، وفي حياتي أيضًا.

أريد إنجاز أي شيء حالًا لأذهب إلى تدريب ركوب الخيل بإسطبل (أصيل) برغم ترددي من ذلك الطقس المنقلب، إلا أن من يدفعني لذلك هو شغف مجهول المصدر. إذا بأمي تدخل إلى غرفتي الخاصة بالمنحوتات التي رتبتها هي من أجلي، في يدها فنجان زجاجي به الشاي والنعناع. إنها دائمًا هكذا؛ تمثل لي نعمة كل صباح وكل لحظة. تقول "صباح الخير" وتضع الكوب أمامي برفق، يخرج منه بخار مائه الذي يتراقص بأشكاله اللولبية كراقصة باليه محترفة، ورائحة النعناع الذي

بيني وبينه علاقة شديدة، أتمنى في لحظات أن أصبح مثلها؛ ورقة النعناع تطيب خاطر من يشرب الشاي المزين بها، وهي تسبح على وجه الماء الدافيء في الليالي الباردة.

أفكر في التمثال الذي أنحته الآن، والرؤى التي تأتيني دائمًا وبها ذلك الذي أنحته حتى أصل لأي شيئ منه، أو ليظل معي مجرد بقاء.

فأنني أشعر وكإنه أصبح جزء مهما في حياتي. لا أريد إخبار أي شخص عنه. يقطع تفكيري صوت أمي وهي تنبهني أن هاتفي لديه إتصالًا من (حليم) خطيبي الذي لطالما انتظر موعد زواجنا وأنا من أطيل مدة الخطبة، برغم ارتباطنا من قبل الخطبة بعامين، إلا أنني لم أشعر يومًا أنني أحبه، بل أقنع نفسي بحبه.

أرفع الهاتف على أذني بنصف إبتسامة:

- إيه يا حبيبتي كل ده بتصل بيكي مابترديش؟
- لسه صاحية دلوقتي
- ماكلمتينيش ليه؟ مش مشكلة ياللا قومي اجهزي عشان محضر لك مفاجأة

كلماته ثقيلة على قلبي، لكني أتحايل على رغبتي وأدعي الإنبهار.. لا أكذب، إن يوجد بداخلي بصيص من الأمل إن الحال بيننا سيتحسن مع الوقت، أو سيصلحه الوقت بمعنى أصح، أنتظر اليوم الذي لا يعلق على تصرفاتي بإزدراء، وبتصنع:

- بجد! حاضر هلبس وأكلمك

(چوانا)

٢٠٠٦

اليوم هو أول يوم دراسي لي، الصف الأول الإبتدائي، تبدو رائحة المدارس كشيء غريب حقًا، أستيقظ من نومي بنصف عين، بعد أرق طويل أحلم فيه حلم يقظ بالمدرسة باكرًا، بعدما ذهبت مع أبي "رشاد" إلى المكتبة لشراء لوازم الدراسة؛ قلم رصاص، أستيكة،كشكول صغير مسطر بالأزرق الفاتح..

على غلافه الأميرة سندريلا، فهو يعلم حبي الشديد لها، وحلمي أن أصبح هي يومًا ما. وكعادته؛ يحقق لي كل ما أحلم به. أتت أمي لتيقظني بهدوء جميل، لم تكن تعلم أنني لم أنم إلا دقائق. أيقظتني وذهبت إلى الحمام، فعلت ما فعلت ثم غسلت أسناني بالفرشاة الجديدة، ذهبت لطاولة الإفطار مع أبي وأمي، ثم دخلت الغرفة مع أبي لأرتدي ملابس المدرسة المنسقة بتنسيقه ورائحته الدافئة. أرتديها فيحتضني بشدة، ثم إلى المدرسة!

وبالي لم يهدأ قط، يفكر ويتخيل، أهي مثلما أرى في أفلام الكرتون؟ ملونة وبها ممارسة أنشطة كثيرة كالرسم والباليه والطين الصلصالي ولعبة المكعبات؟ أتساءل وأنا أسير في يد أبي في طريقنا إلى المدرسة، وهو يحمل حقيبتي الجميلة، أتساءل:

- جدو، هي المدرسة عاملة ازاي؟

- جميلة وفيها ناس حلوين هيبقوا أصحابك، ومدرسة شاطرة هتعلمك حاجات حلوة كتير - هتعلمني زيك؟
- هتعلمك أحسن مني كمان

ها قد وصلنا إليها، صعدنا حتى الصف، ثم اختار جدي لي مكان مميز بالفصل وانتظر حتى اطمأن، رأيته يتحدث مع سيدة في سن أمي، ثم لوح لي، وأشار إنه سينتظرني في حديقة المدرسة حتى نهاية اليوم الدراسي ثم ذهب مبتسمًا.

قلبي ينبض، ليس للمرة الأولى، لكن في بداية كل شيء، ونهاية شيء ما قبله، أشعر بتلك الغصة، ذلك الشعور الغريب الذي يأتي وقت الفرح والحزن، واللاوصف له.

تبدأ تلك السيدة بالتحدث إليَّ أنا ومن معي بالفصل:

- أنا مس أمل، اللي هدرس لكوا رسم، وهكون معاكوا الوقت الجاي كله

أبهرتني في لباقتها، وأناقتها، فتمنيت أن أكبر سريعًا لأصبح مثلها، ثم انتبهت فجأة لحديثها بعدما مر منه ما لم أركز به، من الواضح إنها طلبت أن كل منا يقوم ليقدم نفسه للفصل، وأنا خجلي لا يساعدني على ذلك. من الواضح أيضًا أن هذا دوري، أبتلع وألتقط أنفاسي:

- اسمي چوانا رشاد
- بس اسمك مش كده عندي يا چوانا!

أضع يدي على فمي في دهشة، فأذهب إليها وأهمس في أذنها بصوت خافت:

- ده اسم جدو، وهو بابايا، اللي كان بيتكلم معاكي ده، كل ده سر هحكيهولك بعدين يا... ولا لأ

ابتسمت مس أمل! ثم قالت إلى الهواء بهدوء «كل حاجة بعدين..» وربتت على كتفي بحنان.

تمر الصفوف والحصص، يرن الجرس وأنزل لأقابل جدي الذي ينتظرني، نحتضن بعضنا بشدة مثلما نفعل دومًا في أي مكان عند وقت اللقاء، يقول لي «هيا إلى منزلنا!» فأنازعه أنني سوف أذهب معه لشراء الخضروات والتحدث مع صديقاتي بائعات الفاكهة، فيسلسلم إليَّ ضاحكًا ونذهب معًا مثلما قلت.

***

(جميلة)

«بتحبي القهوة؟»

تتفتح عيني على هذه الكلمات، بعدما أخذني النوم في غفلة طويلة بعد يوم جديد إلى حد ما، تستند رأسي على مسند الأريكة، وهو يسير أمامي بكرسيه المتحرك، إلى آلة القهوة، يصنع كوبًا رائحته تنعش قلبي، أريد التحدث، الإعتراف له، الاستفسار عما يحدث. أريد أن أرتمي بين ضلوعه وأبكي بشدة. أتيقظ فجأة، فيجب أن أقوم أنا لأصنع ذلك!

أنا وبكل إحراج:

- أنا آسفة، اعذرني النوم خدني
- لأ خليكي مكانك، لما تكوني فايقة هشرب القهوة بإيديكِ الجميلة

أتعجب من اسلوبه اللين، حتى شعرت بالريبة من اسلوبه، فنهضت لأحضرها له، رفض قيامي وأحضرها هو.

ليبدأ بالتساؤل الذي حاولت تأخيره: - ماقولتيش يعني، بتحبي القهوة؟

هدأت بعد سماعي لتسائله:

- لأ شكرًا، ارتاح انت، أي حاجة تحتاجها هعملها لك

يدير وجهه في إتجاه النافذة الواسعة حيث الضوء الضخم، وكأنه يرى:

- هو في راحة أكتر من كده؟
- ازاي!
- يعني.. سجادة علاء الدين اللي أنا قاعد عليها دي، وبقيت بصحى ألاقي بنت جميلة قاعدة معايا، والبيت مافيهوش تراب، داخل له الشمس
- ممكن أسأل سؤال؟
- عرفت منين كل ده؟!
- اه.. لو مش هيضايقك طبعًا
- حسيت بكل ده، صحيح.. انتِ ليه ماقولتيش إن اسمك (جميلة) لما قدمتي على الوظيفة؟ هنعيد اللي حصل تاني؟

يفاجئني معرفته بي! أنظر له بدهشة شديدة ويتلعثم الكلام في فمي:

- انت عرفتني ازاي! يبتسم بهدوء:
- ماينفعش ماعرفكيش، استغربت إنك خبيتي عليَّ إنك جميلة، كنت عايز لقانا يكون له شكل مختلف عن كده

ترتجفا يداي وأجلس أمامه على الأرض، وتظهر بعض الدمعات في عيني مع إحمرار أنفي، وأنا أنظر إليه وفي عيني كآبة، لكن تريحني بعض الشيء نظرات (فارس) إليَّ، يمد يده إلى يدي، فأهدأ قليلًا، وأطمئن كثيرًا، أما عنه:

- وحشتيني

تنطلق منه تلك الكلمة إلى قلبي مباشرةً، قادر على تغيير كيمياء دمي بقدر كبير لا يتصوره عقله.

(چوانا)

عند وصولي الاسطبل، أجد كبائن الخيول تنتظرني فارغة في صفوف، برغم الطقس القارس، ولم يأتِ أحد للتدريب اليوم، كل الخيول ما عدا "مسك" -خيل أصيل- الذي يتميز بلونه الذهبي المائل للبياض، وصلابته وسرعته، يبدو عليه الغضب لعدم مجيء صديقه الجميل (أصيل).

عندئذ دخول (حليم) إلى المكان، ليغازلني وينتقل بسرعة من الغزل إلى الأمر، اذهبي لتفعلين كذا وكذا!

حتى ينتهي الحديث مثل كل مرة، بطلب الزواج مني الذي أرفضه بحجة أنني لن أترك أمي وحيدة. حليم كعادته، بنظرته التي لم أحددها لكنها تجعلني أشمئذ بداخلي وأحاول تكذيب هذا الشعور المقزز. توجد علاقة بيننا، وأنا لا أعلم لماذا أستمر بها حتى الآن وأنا لم أشعر قط أنني أحبه، أنظر إليه، حركات أصابعه وهو يستمع إلى موسيقاي الميكسيكية التي أفضل تشغيلها في الاسطبل، يجعلها هو مؤرقة إلى رأسي، وأحاول تجاهله، ومسايرة الأمور. حتى يأتيني هو ليتحدث بنبرة صوته الثقيلة:

- إيه يا بنتي! واقفة بعيد ليه مالك؟ بنبرتي الكاذبة:
- جاية من بدري شوية وبرتاح هو إصطناعاً لِفهمي رافعًا إحدى حاجبيه:
- لا والله؟! ماشي يا عم، تعالي نروح نقعد في مكان بعيد عن المكان المقرف والروايح دي أرد بعصبية أحاول عدم إظهارها:

- انت حافظ مش فاهم يا حليم؟ إيه المفاجأة اللي كنت هتقولها لي!

ينظر إليَّ بعد تجاهله لما أقول: - هستناكِ بره

أخرج وراءه ويرتجف قلبي لصهيل (مسك) الذي يثور غضبًا وشوقًا لصديقه، أنظر إليه وأشعر أنه الآخر يفعل كما أفعل. يرتفع صوت (حليم) وهو يتعجل ويأمرني بالعجلة، لكي نذهب، إنني أفقد الشعور بالمطر حين وجوده. أذهب وأركب السيارة، ليبدأ حديثنا الممل الذي يأكل صدري كي ينتهي، وأنتظر وأكاد أجذب لحظة إنتهاءه بيدي كي تأتي مسرعة.

يتحدث وهو ينظر أمامه لقيادة السيارة:

- ماقولتيش رأيك في العربية، مافيش مبروك حتى!
- مبروك، جيبتها امتى؟
- ماما وبابا
- مالهم؟ هم اللي جابوها تقصد؟
- اه، مكافأة عشان خلصت جامعة، بس مش هسوق كتير

أنظر له بتعجب مما يقول، أصطنع الفرح من أجله:

- الحمد لله أخيرًا، مبروك يا حليم
- الله يبارك فيكِ يا حبيبتي

يكمل حديثه ليخبرني أن أمه هي من اختارت لونها، وكل شيء، أنها ليس لها مثيل، وأنا أؤيد ذلك؛ أن كل منا يرى أمه ليس لها مثيل، لكنها

ليست أم (حليم) أبدًا، التي لم تحسن تربيته كي يصبح رجلًا، إنها فقط تعلمه الإعتمادية، الاستغلال، وحب إمتلاك كل شيء، في مقابل ذلك، هي من ترسم تحركاته وأقواله جميعها، في كل موقف تحسن المفاجآت الصادمة غير المتوقعة بالمرة، وفي تلك المرة، أنه يقول لي: «لا تخبري أحدًا أنك ركبتِ معي السيارة!»

- ليه يا حليم؟
- عادي، أنا ممكن أقول لأصحابي بس، غير كده لأ
- أصحابك! انت بتتكلم كده ازاي! كل ده عشان مامتك ماتعرفش؟ أنا خطيبتك!
- اه يا چوانا، لما تعرف هيحصل مشاكل

أنا بخيبة أمل:

- رجعني الاسطبل عشان مافيش حد واقف فيه النهارده وأصيل لسه ماجاش
- أصيل برده! «يقول بزمجرة»
- اه، ماله!!
- ولا حاجة هتلاقيكي شايفة فيه حنان الأم عشان اسمه على اسم أمك
- اتكلم كويس يا حليم!
- أنا مابقتش عارف أحبك
- أحسن بجد، يبقى أرحم لي

أنزل وأغلق باب السيارة، يطير بها وهو لم يحسن قيادتها، لكنه يعتقد أن كل شيء لديه موجود بالفطرة ولا يحتاج لتعلمه أو التقدم فيه، كما لقنته أمه.

بعودتي إلى المنزل، أجد أمي تنتظرني، يبدو عليها آثار الإنتظار، أنه ممل حقا، ستنفجر في وجهي الآن لتأخيري هذا، تقف بعد جلوسها على المقعد الخارجي للمنزل بإبتسامة تطلق مللا، أبتسم لها وأخرج مفاتيحه لندخل ونحن نتحدث.

يبدأ الأمر بعادتنا؛ ما أخبار (حليم) يا (چوانا)؟ أن أمي لا تتقبله نهائي، تكره تحكمه غير المبرر، وتنتقدني دائمًا في ذلك الاستسلام.

كلٍ منَّا بداخله شخصان، أو أكثر، أنا بداخلي الكثير، ولكن الشخص الذي يظهر لا أعلم لماذا أبديه هو، برغم معرفتي أنه الأقبح بين البقية.

تخبرني أنني من المؤكد خاطئة لتمسكي ب (حليم) بدون أن أشعر أنني أحبه حتى، هي تعلم ذلك، أنني لم ولن أحبه، فهو لا يحيي شعوري بل يميته، مهما قلت لها أنني أحبه فعلًا، أعلم أنني كاذبة ولا أواجه نفسي، هربًا من ماذا؟ لا أعلم! كأن صوتًا بعيدًا ولمكنه بداخلي يناديني ليحذرني من صفعة كبيرة أنا لست لي طاقة بها، لكني أكابر.

يمكنك أن تحصل على جميع الأشياء المادية، وبفقدك لشيء واحد معنوي يمكنه أن يفقدك نعمة الشعور بكل تلك الأشياء الأخرى، فالأشياء المعنوية لا تُشتَرى.

***

(جميلة)

بعدما طلب مني (فارس) ألا أستفسر على أي شيء يدور بذهني، على الأقل الآن، وإنه سيخبرني بكل شيء في الوقت المناسب، احترمت ذلك، كل ما يهم الآن إنني أخيرًا وجدته. تعلمت ألا أزيد في الاستفسار حتى لو كان يقتلني الفضول، والتحدث، يجب أن استطيع التحكم، واحتضان الموقف، حتى يلتئم.

يمر يوم وراء يوم، أشعر بعودة روحي إليَّ مرة أخرى، أتشمم رائحة العودة، لدي شعور بقدومها. لا أعلم أي عودة؛ عودة من ماذا؟ أو إلي ماذا! عودة الشعور؟ عودة الوطن؟ أم عودة الأيام التي ذهبت بلا إنذار، تسارع وتسبقنا.

ذلك الشعور لا أعرف اسمه، لا أسميه الحنين، لأنه ليس كذلك. خواء الروح لا يمتلئ بأي شيء، أحيانًا يتذمر لعدم العودة، إنه لا يمتلئ إلا بها، شعور لا يمكنني وصفه حقًّا، لا أجزم به ولا آراه. شعور مبهم قدر وضوحه وصدقه. يا صديقي/ هل نحن هكذا تائهون؟ لا أعلم، مرت الأيام، تحمل بطياتها لحظات بيضاء وأخرى سوداء، علاقتنا تطورت مرة أخرى، لا نسأل لماذا نفعل ذلك؟ لماذا نقترب هكذا كلما جمعنا شيء ما بمحض الصدفة!

ثلاث طرقات على باب غرفتي الجديدة، غرفة في بيته، إنه أشبه بالحلم، إنه لم يكتمل حتى الآن، لكني أشكر الصدفة التي أتت بي إلى هنا، حين تركت الجامعة وقررت أن أجرب عمل سنة أساعد رجلًا عجوزاً حنونًا

متقاعدًا يملأ خواء روحي بعد وفاة جدي، فأكتشف أ٤ن ذلك الرجل ليس عجوزًا، ليس أي رجل آخر حتى، إنه حبيبي، الذي فقدته عامًا كاملًا لم أجده، بعدما أخبرني البواب إنه تزوج وذهب إلى بلد

أخرى، كسر قلبي بتلك الكلمات، وحين اتصلت به ولم يرد أكد لي الخبر، الآن أنا لا أعرف منه أي شيء عما سبق، وكأننا شخصان يعرفان بعضهما البعض من لحظة إتياني إلى بيته هنا، كإنه شخص آخر، ولكن بنفس الروح التي أحببتها، هو الآن متقاعد، ولا يرى، كما اتفقنا أنا وهو، سأصف له جميع الألوان كإنه لم يرها من قبل، كإنه لا يعرفها، دخل الغرفة بعد طرقاته عليه، تساءل لماذا لم أنفذ اتفاقنا حتى الآن، لنذهب إلى حديقة المنزل ونجلس ونتحدث، نتبادل الحديث، نتساءل عن كل شيء ليس له أساس، أحاديثنا ليس لها معنى بالنسبة لآخرين، لكنها تعني لنا الكثير، لكلانا فقط.

«أنا أول مرة أحس بشغف لحاجة في حياتي، من بعد اللي حصل لي، اللي هحكي لك عنه بعدين» تخرج تلك الكلمات فجأة من فم (فارس) وهو يرمش بعينه بعيدًا، أرغب في معرفة كل شيء ولكني أصبر، لا أعلم لماذا، هل لإني سعيدة الآن وأخاف مواجهة معرفة ما حدث بالفعل، أنا فقط أريد أن نظل معًا، ألا يتركني مرةً ثانية، أن أطمئن عليه، قلبي يحتاج ذلك الشعور بشدة، أيضًا أريده يرى، أريد أن أراه يسير على قدماه مرة ثانية، أرد بصوت متردد ولكني أحاول إيضاح بعض الحيوية التي بداخلي وأنا أربت على يده:

- إيه هي الحاجة اللي حاسس بشغف ليها دلوقتي؟
- إني أشوف الدنيا بس المرة دي بعينيكِ

أخجلني رده وأربكني، وكأنه يجبرني على ضعف قلبي أمامه، ذلك الشعور العجيب الذي أشعر به للمرة الأولى، يذوب قلبي من فرط جماله، تلك الروح التي أشعر إنني لم أرها من قبل، أو إنني عدت إليها مرةً أخرى، تجعلني أفضل دون أن أشعر!

نظر إليَّ بعينيه الغريقتين، ثم قال بصوت هاديء هيا بنا لنسير سويًّا ونقلب العالم رأسًا على عقب حيث نعيد هيكلته مرة أخرى بعينك، هذا كل ما أريده الآن، هيا بنا!

ها نحن قد وصلنا إلى اللامكان، وكلٌ منَّا في صمت تام، حين يصبح الصمت أكثر المواقف صدقًا، ليس لأننا نعجز عن الحديث، ولا لأننا نكذب،بل لأننا نحمله بداخلنا ثمين بشدة،لا يصاغ في كلمة،أومجرد شعور يخرج مثل البقية. أَنظر له وأشعر أنه في واد آخر، حتى وصلنا شاطيء البحر لكي نمشى سويًّا، فقطعت هذا الصمت:

- انت مش هتسيبني تاني وتختفي؟

***

(چوانا)

تمد الشمس الدافئة أشعتها نحوي، في مقهى زجاجي بديل لمقهاي المفضل فوق رمال بحر الشاطبي، الذي لطالما اعتدت الجلوس فوق شاطئه كي أستمع لقصص البشر وهي تتلاطم في المياة وتحتضنها الأمواج حمايةً لها من الرياح، التي تدخل السرور إلى قلبي. يأتي النادل ليضع أمامي المشروب اليومي؛ الشاي المنعنع في الصباح، شاي بورقات النعناع أو ممزوج بقليل من الحليب، في كوب زجاجي، بسكويت مستدير على طبق به نقشات يونانية، أشعة شمس تغازل تلك الوجبة، لكي تصبح أرواحنا بخير. ترسل إليَّ رسالة غير متوقعة لكنها منتظرة منه. (حليم) لا أحدد إطار لعلاقتنا منذ أن واجهني أن من الصعب عليه حبي برغم إتاحة كل الظروف، أنني أحببت طفلا لا علاقة له بالنضج، فإن بعد تأجيلي لكل تلك الأيام لعدم استعدادي النفسي له، يأتي هو ويقول: لا، لست قادرًا على الوفاء.

***

الأنتيك خانة الزمالك، القاهرة شروق يومًا ما..

أفتح الرسالة لأقرأ ما بها من حروف لن تغير من الأمر شيء: "انتِ اللي عملتِ كده، بتكبري كل المواضيع زي عادتك" يا إلهي! لن يعترف بجريمته مهما حدث، حقًّا أنه مرهق. أغلق الرسالة وأترك الهاتف على المنضدة، ثم أبدأ في إرتشاف مشروبي.

أن التخلي القادم من أهل الثقة، قادر على إنهاء كل شيء جميل قد مر، ومُحِيَ وكأنه لم يحدث ويمر على خاطرنا أبدًا.

أرمق بعيني كرسيه الفارغ أمامي، ذلك الكرسي الذي طالما جلس عليه وتحدثنا في كل شيء، لا أعلم أين ذهب وأتي بديلًا له شخص يحمل من البرود ما يحمله محيط بأكمله، ماذا فعلت به ليتحول من شخص تمنيته طوال حياتي، إلى شخص غريب، بعيد، لا أعرف عنه شيئًا. الساعة العاشرة صباحًا، وذلك موعد «السكشن» الخاص بي، سيتحدث الدكتور عن مشروع التخرج الذي لا يمل من التحدث عنه، حتى أكاد أن أطيح بجميع أوراقي التي لم تحمل شيئًا يمت بصلة لهذا الموضوع، أريد أن أصمت، أكمل نحت مشروعي حين سماعي لمعزوفة كلاسيكية لم أعلم لها اسم، لكنها ببالي منذ صغري حين راودتني في حلمي الدائم، لكن للأسف، ليست جميع الأحلام في أرشيف التحقق، بل لا يوجد مستحيل. تمر الدقائق وأنا أتحدث بداخلي مع ذاتي! أكره داء عدم الإلتزام بالمواعيد، أحاول كثيرًا الإلتزام قدر الإمكان، على الرغم من توازي تلك الصفة في اتجاه المواعيد معي!

في طريقي، أراقب ظلالي، وأنظر إلى الشجر وتحرك ظلاله أيضًا، فوق وتحت خطواتي، أسرع في المشي حتى أصل إلى صديقتي الوحيدة المُحتلة؛ كلية الفنون الجميلة، أؤمن أن يوجد فيها -القليل- مما يستحقونها حقًّا،لكن الأغلبية،فلا يشبهوننا في شيء، الفن حقا للجميع، لكنه لم يُخلَق من أجل هذا الإدعاء الذي أراه يوميًّا.

عم (توفيق) رجل طيب يحمي المكان ويحرسه ويعطيه رائحة زمان الطيبة، يقابلني بإبتسامته فيعطيني جرعة تفاؤل يمكنني أن أكمل بها اليوم، عذرًا! المحاضرة الأولى.

أسير حتى موقع السكشن، أرى الوجوه التي اعتدت رؤيتها تفعل ما تفعله كل يوم، فالكلية ما هي إلا نادي تقريبًا، لا يهم، فأذهب أنا إلى تمثالي الذي لم يكتمل بعد، ولا أبالي بالشرح المطول اليومي بنفس الحديث الممل صاحب البركان الذي يحدث في جسدي حينه. أفاجأ حين أقترب لتمثالي الذي أنحته بدون معرفة ما هو، إنه شخص ملامحه لم تكتمل لي. من أضاف به تلك الزيادات بدون إذني! أتساءل ولم يجيبني أحد بالرد الواضح، فأذهب مضطرة إلى (د. كامل البدراوي) لأخبره بما حدث، وحين أدخل مكتبه متوترة بعض الشيء بما حدث للمشروع، والبعض الآخر منه شخصيًّا. أخبره بما حدث فيرمقني ويفصلني بعينه، ثم بكل هدوء ولا مبالاة بما أقوله له:

- لسه مافكرتيش في موضوع الجواز؟

تتسع حدقة عياني ثم أتجاهل بقصد الاستفزاز لذلك الكائن المقزز:

- هو حضرتك ماسمعتنيش ولا إيه!!

بنظرته الحادة التي حولته من ملاك متنكر إلى شيطان جريء بارد:

- ومش هسمعك غير لما توافقي، ويالا على محاضرتك

أكره ذلك الشعور،عندما يتاح إلينا الحلم وتحقيقه،لكن يوجد عائق دائمًا، صلب، يريد منا الكثير من المقاومة كي ننجو بسلام.

في الليل، أسير في طريقي إلى المنزل، أشعر برائحة مخاوف جديدة قادمة نحوي، جلست أمام مدخل المنزل، نظرت إلى قطة تسير أمامي ثم توقفت لتنظر في عيني، تلك النظرة جعلتني أشعر وكأن شخص ما يسألني كيف حالِك، ماذا بكِ؟ بدأت عيني تلمع ثم تسقط منها قطرات دموع صامتة، تحمر وجنتي ثم أمسك

بالهاتف لأحدث (حليم) فأتراجع سريعًا وأغلق أنين بكائي ثم إلى البيت بالإسكندرية.

لحظة النوم تأتي لكي نهرب إلى سرائرنا، نغمر وجهنا داخل الخددية ونبكي، نبحث عما نلتصق به ونبكي، من نختبئ داخله ونطمئن.

ليست فقط غمضة عين.

***

(جميلة)

بعدما طال حديث أرواحنا في صمت، بعدما كان يمسك بيدي بكل دفء، هذه ليست مجرد صداقة أبدًا، إنه حبيبي وصديقي وكل شيء، أقطع صمتنا بسؤالي له لماذا يصمت هكذا؟

- بفكر
- بتفكر في إيه؟
- انتِ عملتي إيه من غيري طول الفترة اللي فاتت؟
- حياتي كانت وحشة أوي، ماكانش فيه حياة تقريبًا.. مع إني سافرت، قالوا لي إنك اتجوزت، وأنا ماحبتش أسألك في حاجة زي ما انت حابب.. هو انت اتجوزت بجد؟ ضحك بتعجب من كلماتي:
- اتجوزت!! جابوها منين دي؟

ارتفع الأدرينالين في عروقي، إنه لم يتزوج، كانت كذبة حارس بيته على قلبي، أقوم من جانبه وأتطلع على الرمال من سعادتي، أشعر إنني بلهاء، تخليت عن المنطق، عن الرزانة والهدوء، كل ما تعلمته في حياتي من طرق تحكم في الذات، آتي أمامه وأتجرد من كل هذا. يقاطعني:

- مافيش الكلام ده خالص، اطمني، كل حاجة هتعرفيها في وقتها

يسود صمت خفيف على الروح، بعده تبادل أحاديث، أحكي له عن آخر أفلام شاهدتها، وما تعلقت به من خلالها، قال لي إن بعض الأفلام الذي

سمعها وتخيلها الفترة الأخيرة كان يتمنى لو أن يصبح بطلًا لها، وبطبيعة الحال وروح الدعابة تأتيه فجأة في نصف الحديث ليقول لي:

«لو خيروني أبقى بطل قصة أكيد مش هتردد إنها تكون قصة حياتك.»

كلماته تقع في قلبي وقوع السحر، قادرة على انتشالي من محيط أحزان إلى غيمة فرح، تمطر على قلبي فتحيي نبضه، تغسل روحي وتنعشها، هو قادر على ذلك بكل بساطة، صاحب إبتسامتي ومصدر سعادتي، حتى لو على الرغم من طول مدة معرفتنا إلا أن يظل بيننا علامات استفهام وأسئلة كثيرة بدون إجابة، لكننا أيضًا لا نحاول أن نسألها، لا نحاول أن نفسرها، فقط يعلم كلانا إن الأمان لا يكتمل إلا بوجود الآخر. سؤاله لي فاجأني حين قال: «انتِ ماحبتيش حد؟» فتسرعت في ردي بعدم المعرفة أو تحديد الشعور، تعجب من ردي:

- إزاي ده؟ في حد مايعرفش هو بيحب ولا لأ؟
- اه، ممكن أبقى بحب بس خايفة أواجه نفسي بكده، لأنها حاجة بعيدة وصعبة
- مافيش حاجة مستحيلة يطمئنني كلامه كالعادة، أؤمن إن كل شيء سيكون على ما يرام، يومًا ما. يكفي وجوده، لكني بقلق:
- أكيد؟
- أكيد، يعني أنا ممكن أقوم أمشي دلوقتي على رجلي!
- لأ خلينا قاعدين بلاش تقوم. أمسكت بيديه، ما هذه الجرأة التي ظهرت داخلي، شعرت بارتجافه، فمن الواضح أن ذلك الطقس مؤثر للغاية، لكني بالتأكيد أحضرت ما يجب عليَّ إحضاره؛ شالًا ثقيلًا يدفئه قليلًا، أضعه حوله برفق، ثم أجلس

أمامه على الرمال، وأنظر إليه في صمت.. ألاحظ أن يبدو عليه الحزن، عيناه دامعتان، فأهمهم بصوت خفيف «ماذا بك؟»

- لا شيء، إنني بخير، لا تقلقي
- كيف لي ألا أبالي بتلك الدموع المحتبسة بعينيك؟
- تلك ليست دموعي يا جميلة
- أمستأجرة هي؟ أنا هنا، دائمًا، لأجعلك سعيدًا، ماذا بك، أخبرني!
- هل تعلمين ما هو أصعب شعور في ذلك الكون الواسع؟
- ما هو؟
- إنه العجز، ليس عجز الحركة فقط، إنما عجز الوصول، عجز التعبير، العجز عن الصدق، أو إفشاء عن كذبة بيضاء، لا أستطيع، أنا عاجز بشدة
- لِما تقول هذا؟
- أريد أن أظل هنا، على شاطيء البحر، معك، فقط.
- معي أنا؟! أنا!
- أجل، انتِ شيء غريب حدث لي، كل ما كنت أريد حدوثه هو وجودك، لكن الآن أنا عاجز
- لم أفهم، لكني هنا لك فقط، ليس لأي شيء آخر! كل ما أريده منك الآن أن تهدأ وتطمئن

ابتسم لي، وضم يدي بشدة، قمت أنا لأكتب أساميا على الرمال أمامه، وأسير حولها، فقط لأرى تلك الابتسامة الجميلة. ثم اقترح:

- تعالى نرقص تانجو؟
- ...

أمسك بيده، ويد الكرسي، ثم أحركه معي بحركات تشبه رقص التانجو، أريد رؤيته سعيدًا.. فقط تلك رغبتي، وأيضًا يجب عليه أن يعلم بأنه مصدر سعادتي الوحيد.

يومًا تلو الآخر، أبحث عما يسعده، وأحاول فعله، أصف له الألوان، جميعها -على الرغم من أنه يعلم جميعها قبل الحادث الذي لا أعلمه حتى الآن- وأرى ملامح وجهه الجميلة تتعجب من جمال الوصف، ذهبنا إلى جميع الأماكن التي لم أرها من قبل، كل شيء كان على ما يرام، فوق اللازم، بكثير! لا أستوعب هل هو المحظوظ أم أنا! أنا المحظوظة بوجوده، بذلك التحول المفاجئ الذي حدث في حياتي بعدما رأيته! أرجو ألا تكن تلك غفوة أستيقظ منها يومًا، فأنا في جنة صغيرة، أصبحت على قيد الحياة.

تتلعثم ا ل ك ل م ا ت، في فمي وتتعثر أحيانًا.

***

(چوانا)

الساعة العاشرة ليلًا، استيقاظ مفاجئ مضطرب، جعل قلبي مسطارًا، مستعد لإختراق جسدي والإصطدام بالحائط أمامي. إنه لحلم مرهق حقًا.

لم يتصل بي أحد، أنظر إلي الساعة، فإننا متأخرين بشدة، أريد الذهاب إلى الاسطبل بسبب جديد اليوم وهو رسم اسكتشات للخيول من أجل مشروع تخرجي.

في الاسطبل..

أجلس فوق الرمال، حولي سور أبيض جميل، أمسك بأوراق الرسم البنية الفاتحة، وأمامي تقف مِسك بكل جمال كي أرسمها. في منتصف الرسمة أنتبه لوجود (أصيل) خارج السور، ينظر ويبتسم، يلوح بيده ثم يقفز من فوق السور داخل الاسطبل ويأتي إليَّ:

- وريني الرسمة
- لما أخلصها، ماكنتش بحسبك بتيجي متأخر هنا
- ده بيتي تقريبًا، هنا بقى مكانِك خلاص حاسس إنك هتتحكمي فيا أجي امتى وماجيش امتي بعد كده
- لأ لأ خالص.. تيجي في الوقت اللي تحبه
- والله؟ تمام يا فندم.. عُلِم ويُنَفَّذ

يقع أثر كلماته جميلًت على قلبي، برغم إنني أتذكر (د.أحمد خالد توفيق) حين قال أنه ليس من اللطيف الأسماء التي تصف صاحبها، مثل أصيل، لكن بالفعل اسمه يصفه، أشعر أن قلبي يقترب من الخطأ، لكن أحيانًا يصبح الخطأ هو المنقذ الوحيد، والمرشد الأساسي إلى الطريق الصحيح.

اليوم التالي.. في المقهى، أجلس بمفردي، أذهب لأحتسي قهوتي..

بمجرد أن وضعت حقيبتي على المقعد المجاور، يضع شخص يده على كتفي فيفزعني، أستدير إليه مذعورة، لأُحبَط، أجده هو (حليم) يبدو عليه أنه يخبيء كلامًا كثيرًا بداخله، أو على حافة لسانه، ينتظر أن يجلس كي ينفجر في وجهي، جلس وأوضح لي إنه يشعر بالضيق مني، يراني لا أعتبره موجودًا، وبشكل مفاجيء، وهو متعجب كثيرًا من تغييري هذا، هو لم يفهم حجم تلك الأزمة التي عرضني إليها مرارًا وتكرارًا، أو عدد الفرص التي أعطيته إياها، وهو ينتبه جيدًا، ولكنه أستاذ في ((الاستهبال)) تصنع الغباء، هو الذي وصلني لتلك الحالة من الزهد الأبدي به، وعلاقتنا التي حكم عليها بالموت بأفعاله الدنيئة، وتركها لي لأنهيها بالشكل الذي أفعله الآن.

أخرج علبة سجائره، للمرة الأولى أعلم أنه يدخن، بعد معرفتنا ببعضنا البعض سنين طويلة، وعلاقة حب ميتة وكاذبة على مدار عام كامل. لا يهم.

ينفث دخانه في وجهي:

- انتِ حالتك بقت صعبة، بتتهربي مني!

أرمقه بعيني:

- أيوه فعلًا! إيه الصعب في إني أكون اتقفلت منك؟
- انتِ بتغلطي في الكلام خدي بالك!
- سيبك من كلامي، انت جاي ليه؟
- عشانك، مش عارف! انتِ اتغيرتي ولا قاصدة تبعدي ولا في إيه مالك!
- تسمع عن حاجة اسمها تراكمات؟
- ....
- التراكمات دي إني أفضل أعدي وانت مستهبل، أحاول أخلينا نتقدم وعلاقتنا تتطور، وانت ولا هنا، عامل مش من هنا، ده غير آخر مرة كلمتك فيها حاولت أصلح علاقتنا، هزقتني، وأكبر حاجة إن الخطوة والكلمة منك بتكون بإذن من مامتك، أسهل حاجة عندها تهين كرامتي.. وأنا مش سهل عليَّ أتحمل إهانة لكرامتي، انت عارف يا حليم إيه هو الموضوع كله من الآخر؟

تتغير ملامحه، تتقطب جبهته، وينفث دخانه مرة أخرى:

- انتِ اتجننتي يا چوانا؟ ماتتهبليش واعقلي عشان مازعلكيش، اعقلي عشان ماتزعليش يا چوانا، تمام!!
- اسكت وسيبني أتكلم لأول وآخر مرة

انتبه لي بذهول، حدقة عينه أصبحت متسعة، فأكملت حديثي:

- التراكمات دي بتشوه أي علاقة، الموضوع كله إنك ضمنتني، ضمنت وجودي وحبي اللي كنت بتحاول توصل له من زمان، يوم ما خدعت نفسك وافتكرت إن أنا حبيتك، نسيت يعني إيه تقدير، انت بقيت بتستهزأ بيا يا حليم.

افتعل المزاح بشيء يحمل غلًّا:

- ما انتِ أصِلك مهزأة، هههه انتِ عبيطة !

تجاهلت لذاجته، وأكملت:

- التراكمات والإهمال وقلة التقدير بيهدموا الحب، بيسقوا المشاكل، ويبعدوا المسافات، بركان ولازم ييجي وقته وينفجر
- أعتقد إن وقته معاكي جه بدري أوي مش كده؟
- بدري! انت مش حاسس بقيمة الوقت اللي بنستهلك فيه مشاعرنا، أنا مش عاوزة أعرفك تاني يا حليم

يتصنع البرود وهو يغلي، ولكنه يظن أن ذلك الافتعال الهاديء دبلوماسية تجعله يظهر دائمًا في شكل الطرف الذي معه الحق، ويتحدث باسلوبه المستفز:

- ليه كل ده؟ ما تهدي كده!

أنظر إليه بإختناق:

- انساني خالص وخليك زي ما انت!

فيبتسم لي إبتسامة تحمل تبلد مشاعر، وعيناه حمراوتان من شدة الغضب، ثم يتركني جالسة بخيبة أمل فيه، عيني بها دموع تكونت منذ أعوام وحان وقتها.

- "شعر بقوته تتخلى عنه، وبرغبة في البكاء، ولكن الدموع استعصيت عليه." - نجيب محفوظ.

أسير إلى بيتي بعد تلك المقابلة غير المقبولة لكنها جعلت بداخلي بعضًا من الراحة لأنني شعرت وكإنني تخلصت من (حليم) إلى الأبد، وأن تلك هي النهاية.

أدخل البيت، كنت أتمنى لو أجد أمي نائمة لكي لا ترى عيني وتفهم كل شيء، لكنها بالفعل نظرت إليَّ، ومن النظرة الأولى تساءلَت:

- ما لِك يا حبيبتي؟ حصل إيه!
- مافيش حاجة، أنا هدخل أنام عشان الكلية بكرا، وانتِ عارفة مابعرفش أصحى لو الدنيا اتقلبت جنبي
- لأ استني هنا، حصل إيه؟ حليم عمل إيه؟

لم أستطع تفسير البصيرة التي تحملها كل أمهاتنا، فإنهن يعرفن كل ما بداخلنا، يستطعن تخمين كل ما يحدث بدون سماع كلمة واحدة مننا، قدرة خارقة تكشفنا، لكنها تجلعنا نطمئن. نحن أيضًا لو استطاعنا الكذب على العالم كله، نأتي أمامهن ونعجز عن الكذب والتجميل، نتجرد من كل تلوث أو شيء غير فطري، نأتي أمامهن وتنعدم القدرة

على الهروب، وكأنهن ملاذ الروح بعد كل حرب، ومفاتيحنا تختبيء فقط في أياديهن.

بالفعل حكيت لها كل ما حدث، وأخبرتها أنني لا أريده، ثم بكيت، بكيت بشدة، أرى تلك النظرة في عينيها؛ تحزن على حال قلب ابنتها، أشعر من عينيها أن حزنها أكبر من حزني أضعافًا، لهذا لا أحب أن أظهر ضعيفة أمامها، أنا لا أبكي من حزني عليه، أبكي فقط من شدة إرهاقي أغمض عيني بين أضلعها، وأغفو في أمان.

***

سبتمبر، الساعة الواحدة ظهرًا

أحيانًا تظن أنك الخاسر في معركة انت المخذول بها، لكنك ستعلم فيما بعد حجم انتصارك، وضعف موقف الآخر أمامك عندما ترى الزمان يدور، وتنقلب الأحداث، فيصبح الخاذل نادمًا، مُخَضَّعًا بالدناءة والضعة، وانت بانتصارك، هادئ النفس، لا تبالي بما يحدث له.

(جميلة)

٣:٠٠ صباحًا

في غرفتي، أقرأ كتابًا في علم النفس، يقول أن السعادة فن، عليك فقط أن تجيده، أكملت القراءة، ثم رن هاتفي

"فارس" كيف تعامل مع هاتفه وهو لا يرى!

- ألو، فارس!
- وحشتيني

أتعجب منه كثيرًا! لكن أسعدتني الكلمة:

- وانت كمان وحشتني، ثواني وتلاقيني وصلت لك حالًا، أوضتي مش بعيدة زي ما انت عارف يعني
- مستنيكِ

قلقت لذلك الأمر كثيرًا، نهضت وذهبت إليه، وجدته يجلس أمام النافذة على كرسيه المتحرك:

- انت قعدت على الكرسي ازاي؟
- صاحبي كان عندي وساعدني
- صاحبك مين؟
- مش مهم تعرفي

ما هذا الاسلوب الجديد؟

- انت بتقلقني ليه؟
- قلت وحشتيني، إيه يقلق في كده؟ وصاحبي اسمه إبراهيم يا ستي
- كده بس؟
- كده إيه؟
- وحشتك!
- دي حاجة مش كفاية؟ قلتي لي إنك موجودة عشاني، أنا مش عاوز كده، بس طلب صغير جدا مني.. إنك لما توحشيني أشوفك
- تشوفني!

تراجعت في سؤالي الغبي! لكن بعد أن وقعت به، أنا غبية! أكملت بالإعتذار الشديد والندم فرد هو في هدوء:

- أشعر بكِ
- أنا خائفة، تحدث أشياء لم أفهمها، ولا أحاول أن أزيد استفساري كي لا أكون ثقيلة، لكني احترت حقًّا
- لا، اطمئني، انتِ مصدر أماني الآن، هيا بنا لنجلس أمام التلفاز، تشاهدين فيلمًا تحبينه، وأجلس معك، نأكل الفطيرة التي صنعتيها في الصباح، ونشرب الكاكاو، نضع أقدامنا أمام المدفأة، ثم نغلق التلفاز، وتحدثيني عنك.
- انت جميل يا فارس
- أنا عمري ما شفت حاجة جميلة زيك، وغريبة، انتِ عايزة تفرحيني ليه! ماريحتيش دماغك وقُلتي أنا ليه أتعب نفسي

مع واحد مشلول وأعمى، مع إن في شغل ممكن تكسبي منه أكتر من كده بكتير!

- كان ممكن أقول كده في الأول، قبل ما أعرف إن انت
- انتِ بتشفقي عليَّ وأنا بكره كده
- بشفق عليك! أنا !!
- بهزر معاكي، مش غاوي دراما أنا والشغل ده، أنا صاحبي جاب لي أكل ومش عايز أكله من غيرك بس

ابتسمت بشدة:

- أكل.. فرحتني، ثانية هحضره
- في الكيس عندك على الباب

أحضرت الوجبة، أكلناها سويًّا، وجلسنا أمام المدفأة، حتى أحضرت الكعكة، والكاكاو، ثم جلست واستندت برأسي على كتفه.

هو..

دائمًا يأتي في وقته المناسب، أو بمعنى أوضح، أصبحت أحتاجه معي دائما، وهو لا يتركني أبدا.. أدركت أن راحتي ليست بمكان أو بفعل شيئًا ما كما كنت أتوقع.. بل وجدت راحتي بقربه ووجوده، بمجرد أن أشعر باختفاء طيفه من مكان أجد بداخلي فراغ كبير، عدم اطمئنان، وقلة راحة، شعور لا أستطيع وصفه كما هو! أظل أنتظر معاد رؤيتي له المرة القادمة وأعلم أن هذا ما يجعلني سعيدة، ويزيل كل ما يرهقني بخفته.

تنطفيء جميع الأشياء بدونه. وهو لا يعلم كل ذلك. أشعر معه أنني على طبيعتي، لا داعي للتزييف والتزين الزائد، لن أنافق، أو أخاف..

أتحدث عما أريد وأنا أعلم أنه مشاركته لي فيه بكل حماس، نستمع للموسيقى سويًّا وتتشابه أذواقنا، أراه يغير معاني لأشياء كثيرة..

هو جميل دائمًا، حتى وقت ذبوله، وحزنه، عدم ترتيب ملابسه في يوم لم يكن لديه البال مستعد فيه.. وهو مرهق!

أنظر له ولا يكون لدي الجرأة أن أخبره عن مدى انبهاري به، حتى في أشد أوقاته إنطفاءً، أتمنى لو ترى نفسك بعيني، وتحبها بقلبي، أخبرك أن جميع مزاياك وعيوبك جميلة.. لإنها بك.

***

(چوانا)

أستيقظ من نومة مرهقة، ذلك الصداع في رأسي يؤكد لي أن شيئًا غير لطيف حدث بالأمس ولكني لم أتذكره، أنهض من سريري، أمسك بهاتفي وأتذكر كل ما حدث، أحمد الله حقًّا أني تخلصت من (حليم) على الرغم من شعور قلبي بغير ذلك. أحاول أن أتناسى كل شيء، كل ما أفكر به الآن هو (أصيل) أريد أن أذهب له بكل ما أحمل، كل ما برأسي، وقلبي، وروحي، عندما آراه سأفرغ كل هذا مني، سيسقط على الأرض أو يتبخر إلى غيم السماء.

لكن قبل أن أذهب إلى (أصيل) قررت أن أذهب إلى القاهرة، حتى أقابل حبيبتي (فنون جميلة) لأكمل مشروع التخرج، حين وصلت أجد شيئًا يصدمني، كنت أتوقع ذلك، لكني كذبت نفسي وقلت من المؤكد ألا يوجد بشر بكل هذه الشراسة، تمثالي محطم بعض الشيء، بعدما كنت أشهر أن ذلك المكان هو منبع الأمان الذي طالما تمنيت الوصول إليه، وكنت أحلم باليوم الذي سأخطو بداخله، (د.كامل) جعلني أشعر بخوف هنا، فما أكثر من أنني لم أستطع تكملة مشروع تخرجي! وكإنه يعاقبني على عدم استجابتي له ولحماقته، ليس كبقية الدكاترة المبجلين هنا، ليس كدكتور (أحمد) الذي يعامل الجميع كإخوة له، لكن ذلك الناقص الآخر وقح لأقصى درجة ممكن تخيلها، أذهب إليه وأنا أستشيط غضبا منه:

- يا دكتور حرام عليك! مجهودي بيروح والسنة هتروح مني

يقترب إليَّ ويمسك بيدي، فأدفعه بشدة:

- ماينفعش كده، عيب راجل في مركز كبير زيك يطلع منه تصرفات بالحقارة دي! يمسح جبينه المتعرق، ثم بإنفعال وتوتر شديد:
- انتِ بنت قليلة الأدب، وأنا هكتفي المرة دي بتحذير بسيط! المرة اللي جاية لو ماكنتيش في بيتي.. هتكون رفد، وصلت؟

أنظر له بذهول مما يقوله، ومن حقارته، ثم أذهب إلى صديقي في الكلية (صابر) وأنا أبكي بشدة، فيعمل كل ما بوسعه لتهدئتي، أنا لم أعرف (صابر) منذ يومين، هو الزميل الوحيد هنا الذي أصبح صديقًا لي، أخبرني أن كل شيء سيصبح على ما يرام، ثم نظر كلانا إلى المشروع لنجده محطمًا بالكامل، بالكامل! فأنظر إلى (صابر) وتزداد دموعي، ثم أبكي بانهيار، فيطمئنني مرة أخرى:

- ماتقلقيش كل ده هيتحل وهنعمل مشروع أحلى منه، ماتشيليش هم واهدي طمأنتني كلماته قليلًا، ولكنها لم تهدئ من خيبة أملي وحزني على مجهودي الذي دفن في لحظة!

أهاتف (أصيل) فور خروجي من الكلية، لا أخبره بما حدث، قررت بداخلي ألا أخبر أحد، أن أتجاهل المشروع نفسه تمامًا، وكل شيء، كل ما أريده الآن هو ذهابي إلى (أصيل).

***

بالفعل؛ نحن داخل الاسطبل، أراقب تصرفاته، حركات يده، عروق معصمه بارزة اليوم، تنظر لي وتلوح، أهلًا بكِ يا محببتي، لا تحزني، أريد أن أذهب وأضع يدي فوقها، أهي مثل عروق يدي لينة؟ أم صلبة لتناسب قوته؟

نتبادل البسمات الصامتة، الصمت معه يحمل كثيرًا من الكلام، هو عودني على ذلك.

يأتيني وأنا أجلس على مقعد صغير، جلس على ركبتيه أمامي، ثم نظر لي، أطال النظر وكأنني أغرق في عينيه، غرقت بالفعل، أتساءل لماذا يجلس هكذا، الاستغراب بداخلي، منه ومن نفسي أيضا، فأنا لم أنتظر منه تفسيرا، أرغب فقط في إطالة النظر إلى عينه، أخاف أن يدير وجهه ويعود إلى تنظيف الاسطبل. ينتبه فجأة وكإنه يقول لقلبي أن يهدأ، وكإنه يسمع نبضاته التي كادت أن تخترق جسدي ويضمها هو ليهدئها، يساعدها على التنفس بسهولة:

- انتِ جميلة بجد، عينيكِ جميلة أوي

تفاجئني كلماته التي لم أتوقعها منه الآن بالرغم من حدوث كل هذا، وقعت في قلبي أثر الفراشة، أخجلني، ولكني لم أشعر بالخجل بالشدة التي أشعر بها في طبيعة حالي، أنا لستُ هكذا، لست بتلك الجرأة مع أي شخص من قبل، أنا لا أريد أن أتركه أبدًا، أما عنه:

- چوانا.. انتِ معايا؟ أنتبه له:
- أيوه معاك
- يا رب تفضلي معايا على طول

- ....
- أنا آسف، صحيح هو مين (حليم)؟
- كان زي خطيبي
- كان؟ وزي؟ ازاي فهميني
- يعني «كان» لإننا سيبنا بعض امبارح، و«زي » لإني عمري ما حسيت إنه حبيبي ابتسم لي بتلقائية شديدة، بدا على صوته الحماس والفرحة، جعلني أنا أيضًا أبتسم:
- انت فرحان؟
- لأ أفرح إيه دي حاجة محزنة أوي أوي

قالها بمزحة تبدو على صوته بشدة وتسعدني:

- انتِ مش متضايقة صح؟ يللا نحتفل
- نحتفل؟ لم بنتبه لكلامي، أمسك بيدي وخرجنا من الاسطبل إلى الـ ((سكوتر))

الذي يتقن قيادته، لكنه يقلق قلبي خوفًا عليه. ركب وأشار لي أن أركب خلفه، يطير هو ويطير قلبي، ِلما لا! فإن كلاهما واحد.

نجلس على الشاطئ في صمت، أفكر هل أتى بي إلى هنا وقال لي "سنحتفل" لكي يبقى صامتًا هكذا، لكننا كالعادة نتحدث صامتين، ينظر بعضنا إلى أعين بعض، ونستدير إلى البحر في نفس اللحظة، يقطع صمتنا صوته بنبرة مختلفة تلك المرة، يذوب قلبي معها:

- عاوزة تسألي عن إيه؟
- إحنا إخوات وأصحاب صح؟

استدار لي وانتبه واستند بقبضة يده على الرمال ناظرًا في عيني:

- لأ هعمل نفسي بحبك شوية

ابتسم لي ثم نظر إلى الأمواج أمامنا ثم بصوته الهادئ:

- انتِ عارفة أنا نفسي في إيه بجد؟

انتبهت له حتى يكمل حديثه:

- نفسي أقول مرة اللي حاسس بيه من غير ما أعمله نكتة! فاهمة حاجة؟

بعدما ترددت كلماته في أذني، كذبت قلبي فيما فهم:

- لأ فهمني أكتر
- مش مهم تفهمي

تملك الصمت مني حين كنت أرغب في الحديث بشدة بعد كلماته التي تركت في نفسي الحيرة:

- تيجي نروح؟ ولا عندك أي حاجة تقوليها أو تحبي نعملها
- نتمشى الأول وبعدين نروح، ممكن؟
- تحت أمرك

نهض ومد يده لي كي يسندني.

***

أجلس على مقعدي في روف المنزل، أنظر إلى السماء والنجوم كما اعتادنا؛ أنا وهو، في نفس اللحظة؛ نغلق الهواتف ونحدث النجوم ليصل حديثنا عبرها، إنه ليس صديقي فقط كما هو الواضح بيننا، تلك ليست مجرد صداقة، فإني أشعر بروحه داخلي، أشعر بما سيقوله قبل أن ينطق كلمته الأولى، كلما ذهبت لأحدثه عن موضوع أجده يسبقني ويبدأه هو، وانتهى الحديث اليوم بكلمته التي لم تترك بالي "نفسي أقول مرة اللي حاسس بيه من غير ما أعمله نكتة!" إنه عبر عما شعرت به لحظتها، حين قال لي مازحًا جملة تحمل كلمة "بحبك" أثار في روحي الأمل، وشعرت بتدفق في نبضات قلبي منعني عن الحديث حينها، قررت الآن أن أفتح هاتفي وأحدثه في كلمته، لعله فتح هاتفه هو الآخر، لأفاجأ إنه يتصل بي فور تشغيل الهاتف، أسعد وأتعجب:

- ماعرفتش أنام قلت أكلمك
- وأنا كمان

يبتسم كلانا..

***

(جميلة)

في الواحدة صباحًا

نائم هو، أمسكت بجهاز «اللابتوب» الموضوع على الرف المجاور لنافذة الغرفة، أجلس وأضعه على فخذي، زر التشغيل، ثم صفحة بحث، لأبحث عن أساليب تسعد المتقاعدين بإعاقة جسدية. يظهر أمامي كثير من الكتب والمقالات، لفت انتباهي فيلم يسمى «حياتي من قبلك»

Me before you

ما علاقة الفيلم بما أبحث عنه؟ سيأخذني فضولي في رحلة لمشاهدة ذلك الفيلم.

تمر دقيقة، ١٠ دقائق، ساعة ساعة و٣٠ دقيقة.. ١١٠ دقيقة وينتهي الفيلم.

تدور أحداثه حول شابة تعمل في إحدى المقاهي، من المقهى إلى المنزل والعكس، تجد صعوبة في تقبل حب صديقها، لم تتوقع طردها المفاجئ من عملها، على صعيد آخر؛ حادث دراجة نارية، يحدث لشاب مليء بالحيوية والتجارب الكثيرة، ثم يصاب بالشلل الرباعي ويبتعد عن كل ذلك فجأة، فتعمل لديه تلك الفتاة، كلما مر الوقت فيقترب عالميهما معاً أكثر، وعلى كل جانب منهما تزيد البهجة، تبحث هي عن طرق لإسعاده حتى لا يختار إنهاء حياته، بعدما سمعت حديث بين والديه عن إتفاقه مع مؤسسة سويسرية على ضمان له موتًا رحيمًا بعد ستة

أشهر، ذلك المشهد أزعجني بشدة وجعل قلبي يخفق أشد، خفت على (فارس) ماذا يدور بباله؟ على ماذا ينوي ولا يبوح؟ تملكني خوف شديد عليه، إنها من حظها سمعت القصة صدفة، لكن أنا! ما وضعي الآن إذا كان يفكر بشيء مثل ذلك، رد صوت عقلي سريعًا:

«بطلي أوهام ودراما وكملي الفيلم وانتِ ساكتة.» وبالفعل هي أسعدته، لكن في النهاية ذلك حب محكوم عليه بالوجع الدائم، أسعدته لكنها لم تستطع أن تجعله يبقى معها.

حزنت بشدة، يأكل الخوف قلبي أن يأتي ذلك اليوم الذي يقول فيه (فارس) إنه ذاهب بلا رجوع، يتركني بحجة أنه ليس أناني، سأحب وقتها أن يصبح أناني! بل الأنانية الحقيقية هي أن يجعلني أعشق به الحياة ثم يرحل ويتركني بدونه فيها.

تتفتح عيناه فأغلق الجهاز وأنهض إليه مسرعة:

- انت كويس؟
- اه الحمد لله، انتِ مانمتيش؟
- مش جاي لي نوم
- طب ما تروحي تنامي يا بنتي إيه مزنبك التزنيبة السودة دي!
- انت مش عاوز مني حاجة؟
- عاوزك معايا .. ثم أمسَك يدي بلطف.

***

جلست بجانبه بعدما غفى بين يداي، أفكر فيما حدث في الفيلم، لما لا تتغير أحداثه لدينا؟ كل تلك المدة لم أبدي أي استفسار لـ (فارس) عما وقع به، ما الحادث الذي تسبب في ذلك! وما هي حالته! هل ذلك تقاعد وعدم رؤية مؤقت أم أبدي! هل لديه صعوبة في الشفاء؟ أم ذلك مجرد وقت فقط! أيا كان، فالأمر يستدعي رحلة معًا، سأسير على خطى الفتاة (كلارك) لكن بإمكاني ألا أتخلى عنه أبدًا، مهما حدث، ولن أسمح له إلا بالشفاء. لكني تذكرت أن موعد السفر وعملية عينيه اقترب، اشتقت للحظة رجوع نظره إلى الحياة، اشتاقت لنظراته القديمة، اشتاقت إليها كثيرًا.

***

(چوانا)

أجلس على شاطيء بحر غريب، يتغير كل مرة، ماءه شديد السواد، برغم أن السماء زرقاء، أجلس وحيدة، تلاطم الهواء يحرك جسدي مش شدته، الغيوم تخبيء الحدود، أشعر وكإنني في غفوة، لا يخرجني منها إلا ذلك الشخص الذي أراه دائما، دائما يأتيني هنا وملامحه ليست واضحة، أشاهده من بعيد، فأذهب إلى الماء لأعرف هل هي سوداء بالفعل، أم ذلك إنعكاس شيء أسود بأعماقها، ينتشلني هذا الشخص بطريقة شديدة بها حنان أشد، يضمني بشدة، أحاول التوجه بعيني تجاه وجهه لكي أراه وأحدد ماهيته، كلما حاولت، كلما ارتجفت خوفًا، وضمني هو بشدة أكثر كي أشعر بالأمان. أنهض من ذلك الحلم المفزع المتكرر، إنه حقًّا يؤرقني.

أعود إلى الاسطبل، أصبح مكاني المفضل، أكثر من كل شيء؛ من الآتيليه والكلية وكل شيء، أعلم أن السر ليس في المكان، إنما فيه هو، أنه موجود، هنا دائمًا، أن ذلك المكان مرتبط به، ممتليء بروحه الجميلة، أصبح الاسطبل به كل يومياتي، بعدما قررت تنفيذ مشروع التخرج بداخله، بمتابعة (أصيل) أعلم إنه لم يدرس الفنون من قبل، لكنه هو الفن ذاته بالنسبة لي، حين تراه عيني أطيل النظر وكإنه لوحة فنية تروي قصتها، قصتي أنا، قلبي وما ينبض به.

أرسم وأنحت، وأنا أتابعه وأتابع حديثه الدائم بعفوية مع الخيول، أسمعه صوته العذب وهو يقول "وبعدين فيكي بقى! ما تاكلي بدل ما

أتعصب عليكي!" شعرت بالغيرة من (مِسك) أجننت أنا؟ أشعر بالغيرة من فرس!

يمر شهر.. شهران، ثلاثة أشهر وأربعة، ونبدأ في الخامس اليوم.

تظهر معالم المشروع، الفرس (مسك) وفوقها أنا، معنا من يقود الفرس، الذي لم أحدد ملامحه ولكني أتردد، هل أكمله وأجعله شبيهًا لـ (أصيل) أم أنتظر حتى يأتي حلمي الذي أحلمه دائمًا وتظهر معالم الشخص الحقيقية، كي يصبح لمشروعي فكرة أصدقها، لما لا تكون الفكرة هي (أصيل)؟ كل تلك الهلوسة في رأسي تشتتني، فأختار الهدوء وأغفو.

***

(أصيل)

أخرج من كشك (مسك) لأجد (چوانا) تنام على الأرض، تخلع قلبي من مكانه، في نفس اللحظة التي أريد إنتشالها من فوق الأرض وضمها إلى قلبي، أفكر في حل ومكان تنام فيه لترتاح بدلًا من نومتها هذه، أنظر إليها فأتأمل تفاصيلها، من المؤكد إنها غفت من الإرهاق، أجلس بجانبها وأرفع رأسها ببطء شديد كي لا تقلق، وأضعها فوق فخذي، ويدي تحت خدها، تحرك رأسها لتضع خدها على يدي مرة أخرى وكإن قلبي يتحرك معها، أشعر أنني خائف، لا أعلم من ماذا، لكن بقدر خوفي الآن مطمئن بشدة، كإن الأمان كله أتى إلى هنا، أطيل النظر إلى وجهها الملائكي وهي تذهب في سابع نومة، أريد أن أذهب إليها لأحكي لها كم أشعر بالحب الآن، كم تحتويني اللحظة التي أنظر فيها فقط إليها، لا أصدق أنها مقتربة مني هكذا، ربت على كتفها، طبطبة خفيفة، كإنها ابنتي، قلبي يشعر بالمسؤولية تجاهها، للمرة الأولى يصل إلى قلبي معنى الحنان، أن يخرج مني أنا إلى شخص آخر. تقطع حبل أفكاري (چوانا) وعيناها تتفتحان، تنظر إليَّ براحة وسكينة، وتمسك يدي بيديها، ثم تنتبه، وتقوم بفزع وهي مبتسمة، تجعلني أتوتر وكإنني متهم بجريمة كبيرة، وأجلس أمام القاضي لأبرر موقفي، بعدما سلبوا مني الكلام:

- إيه مالِك؟ أنا طلعت لقيتك مقتولة ع الأرض صعبتي عليَّ قلت أعمل نفسي مخدة لحد ما تصحي
- كنت تصحيني من وقتها، هو أنا نايمة من امتى؟
- من السنة اللي فاتت

قامت مفزوعة، وهي تنظر إلى ساعتها فلم تجد في يدها ساعة، فتمسك بيدي بتلقائية لتشاهد الساعة الحادية عشر مساءً، لم تلقِ بالًا لمسكها بيدي، أشعر أنها محرجة بعض الشيء، لكني سعيدًا.. سعيدًا للغاية، أشاهدها بإبتسامة وهي تهاتف والدتها لتخبرها إنها متأخرة بسبب المشروع، تمنيت لو أتت الآن وأخبرتني أنها تستهر هنا لتكملته، وتدفئة قلبي بالنظر إليها!

كأنها تحتل قلبي بتميُّز، وأنا أعشق ذلك الاحتلال المختلف، الذي يدفع للبقاء على قيد الحياة إلى الأبد.

***

(چوانا)

عندما استيقظت ووجدت رأسي فوق يده وهو بجانبي، توترت بشدة، أمسكت بيده للتأكد مما أنا فيه، هل ذلك حلم أم ماذا؟ نهضت مسرعة أفكر في قلق أمي الآن، أنا لم أخبرها إنني سأسهر هنا لأكمل مشروعي، هاتفتها بعدما وجدت ٢١ مكالمة لم يرد عليها، أخبرتها وطمأنتها، أوصتني بالأكل الجيد وأنهت المكالمة "خدي بالك من نفسك" فيطمئن قلبي حقًّا وأشعر بالمسؤولية تجاه نفسي، فأمي هي التي توصيني بذلك وهذا يكفي، واجبي نحو نفسي حق لها.

أنظر إليه فأجده، ينظر هو الآخر ويبتسم، ثم يلوح لي ويرفع حاجبه، شعرت بشخص جديد أراه، كإنه يخبيء بداخله كلمات لم يقولها. لكنه يجعلني أبتسم وأذهب إليه.

يمر يومًا تلو الآخر..

إنه رجلًا يعشق الخيل والفرس، يبهرني كلما نظرت إليه وراقبته هكذا، لدي فضول لكثير من الأسئلة معه، أريد أن أدخل في رأسه وأرى ما يخبئه، داخل قلبه أيضًا، أتساءل كلما وجدته لطيفًا هكذا؛ أهو يحبني حقًا؟ يشعر بي مثل شعوري به، ينبهر حين يراني، وتتدفق الدماء في جسده، ينبض قلبه بشدة، وتتلعثم الكلمات في فمه، هل يراني كما آراه؟ أنا أحببته بشدة، لم أعلم كيف حدث هذا، أنني كنت أعتقد أنني كرهت الحب، ما الذي جعلني أتعلق به هكذا؟ لكنه يستحق؛ هو الشخص الذي عندما رأيته شعرت بأشياء لم تحدث لي من قبل، أعلم أنه

يستثنيني، ذلك شيء مفضل لدي، لكني أي ًضا أعلم إنه يعجبني في كل الأحوال، بكل الشخصيات وردود الأفعال، بكل ما فيه من جمال وعيوب، أحبه رغ ًما عن كل شيء حدث وسيحدث، حبه أصبح مثل النفس، دقات القلب، إنه استوطن عقلي، استوطن كياني بأكمله. أخاف من يوم يثبت لي أن كل هذا كان مجرد وهم، لكن بصلة قلبي ترشدني إليه، وهذا ما يجعلني أطمئن. يأتي إليَّ ممسكًا بفرسه:

- تيجي نعمل سباق خيل؟
- أنا وانت؟
- اه مع بعض كده، نسابق بعض

أهابتني الفكرة قليلًا، رغم إنني كنت أتعلم ركوب الخيل هنا من قبل، لكن منذ ذلك اليوم حين سقطت من فوقه وأنا لم أركبه قط:

- بس أنا خايفة أركب خيل من يوم ما وقعت من عليه
- وقعتي ازاي؟ أكيد زعلتيه منك، تعالي هنا وماتخافيش

يضع بعض من التبن في يدي، ثم يمسك بيدي ويضعها أمام فم (مسك) حقًّا انفطر قلبي من التوتر، لكن الخوف زال تمامًا، زال بشدة وأنا أنظر في عينيه، لإبتسامته، هو يظن إنني خائفة لكني الآن.. أغرق.. أما عنه:

- مش خايفة؟
- مش خايفة

يبتسم ويضع يده الأخرى فوق يدي التي تربت على الفرس، يمسكها متصنعًا وكإنه يعلمني كيف أربت عليه، أنظر إليه وأبتسم، كعادتنا، في صمت.

يحملني فجأة ويضعني فوق الفرس، انخلع قلبي من الخوف والفرح لحظتها، شددت على يده حتى لا يتركني، وتكررت الكلمة "ماتسيبنيش.."

- قلت لك ماتخافيش، دلع فارغ!

سمعت تلك الكلمة وقفزت من فوق الفرس فورًا، بدون تفكير، فكل شيء مقبول إلا أن يظن شخص في بما ليس في. نظر لي في ذهول لعدة ثواني، وأنا واقعة على الأرض:

- انت هبلة؟
- اه، كله إلا إنك تفهمني غلط
- انتِ عارفة والله لو كنتِ واحدة تاني كنت ضربتك!
- ...

اقترب لي ثم جلس بجانبي، اقترب أكثر حتى اخترقت رائحته قلبي، تمالكت أعصابي ووجهت رأسي بغير اتجاهه، فأمسك برأسي ليعيدها إليه، هو لا يعلم ماذا يفعل بقلبي. أتكئ بيدي على الأرض فيسير بيده فوقها حتى اختبأ كفي تحت كفه، يهمس لي:

- ماتعمليش كده تاني، أنا كنت بهزر
- كنت بتهزر بجد؟

- أيوه، سيبك من الموضوع ده، انتِ جميلة جدًّا والله

هذا الغزل يجعلني أفقد سيطرتي كاملةً، منه فقط، لم يجذبني أي غزل من قبل، مهما بلغ جماله، لم أحبه إلا عندما وجدته من (أصيل) أحاول التهرب من غزله رغم سعادتي به، أتحرك لكي أنهض من مكاني هذا، فيمسك بيدي أكثر، أعلم أن كل هذا مزاح، لكنني أخجل بشدة، وأحبه بشدة أكثر.

أشياء ما تحدث لنا في وقت قصير للغاية، أحيانًا، تؤثر فينا، وتَحتَل مكانة رفيعة في قلوبنا، بدون سابق إنذار.

بالرغم من حرصنا الدائم على عدم إتاحة الفرصة لدخول أشخاص جديدة دائرتنا الصغيرة، وجود أحلام سعيدة ببدايتها.. لا تتحقق في النهاية، حلم وراء حلم، ويتبعه خيبة أمل وإحباط مرة أخرى، يأتي حلم ما ويكسر تلك القاعدة التي ليست بقاعدة، ولكننا بنيناها بمعتقداتنا العجيبة.. يأتي ذلك الحلم ويقتحم قلوبنا وحياتنا وكل ما ُيحيط بنا يختبئ بداخلنا، نَكُون ُس َعداء لأكبر َحد بذلك الاقتحام، ونُرحب به ترحيب جدير بأرواحنا. يمكن لذلك الحلم أن يكون شخص، بعض الأشخاص يمثلون أحلاما، تحتاج لسعينا لكي نحتفظ بها، للأبد.

جاء لي هو بمثابة ذلك الحلم، الذي من خفته احتواني، غيمة غمرتني بأمطارها، شعرت بأشياء لأول مرة أشعر بها، شعور أعلم بوجوده للمرة الأولى.

هو ليس مجرد شاب لفت انتباهي، إنه شيء عظيم يبهرني في كل لحظة عن التي تسبقها، بشخصيته الجذابة، اسلوبه اللبق، علاقتنا المرنة،

وعينه التي أحبها، حبه لكل شيء، رؤيته المختلفة البسيطة، حكاياتنا وتبادل أفكارنا، صوته، وكل شيء أحببته فيه، لم أجد له وصف لإني أشعر بضآلة الأوصاف مقارنةً به، جماله يكفي أن يكون هو مصدر الوصف الذي آ ـَمل أن أصل إليه وأصفه به، فإن يمكنني أن أقول «ماذا الشيء الأصيل هذا؟» ليس لوصفه بالأصالة، إنما لاستعارة اسمه ووصف الأشياء الجميلة به.

إنني أحببته، وأنا لم أحاول ولم أبذل أي مجهود لهذا الحب، إنه أتاني من حيث لا أدري، لكنه حقًّا، ملأني وغمرني به.

أحببت ذلك الشعور جدا، أرجو ألا يتركني أبدًا.

***

(جميلة)

يسير القطار بين الخضر، بصوته الجميل، وحركاته المائلة عل الجانبين، ونحن نجلس، كل منا بجانب الآخر.

حان وقت رحلتي إلى الريف، التي طالما حلمت بها منذ الصغر، وكبر الحلم معي حتى أصبحت شديدة التعلق به، أنا لم أقرر أن أذهب إلى هناك، حتى أتى (فارس) ليدفعني ويشجعني على ذلك القرار وتحقيق تلك الأمنية التي ظننت أنها صعبة.

***

جزيرة تونس، الفيوم الساعة التاسعة مساءً

- حفل موسيقى لعمر خيرت، أعلم أنه يحبه، أنظر إلى (فارس) أثناء بدء معزوفته الجميلة "امتى الزمن يسمح يا جميل؟" فينظر لي بإبتسامته الجميلة.. ننتقل إلى فيلم سينمائي، علمت وقتها كيف تتحدث السينما ونحن لم تنفتح أفواهنا وتنطق بكلمة قط، المشهد السينمائي أمامنا كالآتي:

ليل، شاب وفتاة، يجلسان على شاطيء، أصوات الأمواج، ينظر إليها:

- ستتركينني؟
- لماذا تقول هكذا!
- لأنني خدعتك

- أي خدعة هذه؟
- أنا لم أكن جدير بك، أرهقتك معي فوق ال ُمحتَمل، أنا رجل عاجز
- لا، لا تقول تلك الكلمة مرة ثانية! انت لست عاجزًا
- أشعر أنك بداخلي
- شعورك صادق بشدة، أنا أشعر كذلك
- تستحقين الأفضل
- لم يكن أي شخص آخر هو الأفضل، طالما انت في قلبي
- في قلبك؟
- أتحبينني؟
- نعم
- بكل تلك الجرأة
- لست جريئة بالمرة! لكني معك وجدت نفسي، أشعر أنك انت نفسي التائهة مني منذ زمن بعيد، أصبحت ألتقط نسمات الهواء براحة نفسية، لم تترك بالي قط، منذ أن التقينا وأنا أشعر أن الله وهبني نعمة جميلة، أشاهد من خلالها جمال كل ما يدور حولي، أحببت الحياة، شعرت بوجودي، وجدت من يستحق العيش لأجله، الذي اجد به شغفي، فشغفي بك زائد باستمرار لا متناهي، وانت كذلك، أليس كذلك؟
- نعم، مثلك تماما. بإبتسامة جميلة ثم يتعانقا.

في نفس الحين الذي تعانق يد (فارس) يدي، ويبتسم أيضًا وكإنه يرى المشهد، ابتسامته الذي لم أرى مثل جمالها على وجهه الذي أستمتع بمراقبة تفاصيله الحادة بشكل بسيط، بسيط لدرجة جميلة.

حين يصبح الصمت أكثر المواقف صدقًا، ليس لأننا نعجز عن الحديث، ولا لأننا نكذب، بل لأن ما نحمله بداخلنا ثمينًا بش، لا يُصاغ في كلمك، أو مجرد شعور يخرج مثل البقية. لنذهب إلى صالات الألعاب، نبدأ بالبولينج، جالسًا هو على سجادته السحرية، فأمسك به وأدفعه بحرص لكي يدفع الكرة وتطيح بجميع الزجاجات، ثم إلى صالة الهوكي، إنها لعبة عالية الارتفاع، فقررنا أن نجلس على الأرض ونخترعها نحن ونلعبها سويًّا، من المؤكد إن الأمر كان يبدو صعبًا عليه بعدم الرؤية وصعوبة التحكم في الحركة، لكن ما كان يكفيني ويفيض هي ابتسامته.

***

نجلس في شرفة الفندق، أفكر، أتشتت، وكأنه يراني، فهو كان ينظر لي حينما كُنا نجلس في قاعة السينما، وكأنه يراني بالفعل:

- أنا عايز أقول لِك حاجة
- قول
- انتِ مخبية عني حاجة صح؟ أو عايزة تسألي عن حاجة مثلًا؟
- ده اللي عايز تقوله؟
- اه.. تقريبًا!
- اه عايزة أسألك عن حاجة ومترددة
- أنا إيه اللي عمل فيا كده وخلاني قاعد؟
- عرفت ازاي!
- سؤال بديهي، كنت مستغرب ازاي ماسألتيهوش كل ده
- انت طلبت مني ماسألش، واتكسفت أسأل كتير

- مافيش حاجة بيننا اسمها اتكسفت، عمومًا هحكي لِك، كان في واحد عارفه من زمان نفسيته فيها حاجة

مش مظبوطة مني، وأنا خارج من مكاني خبطني

- بالعربية! امتى حصل ده!! ومين ده!
- اه، ضربني بالعربية بأقوى ما عنده، جاب لي شلل سفلي، بس شلل مؤقت في العصب.. مش هتفرق لو قلت عليه هو انتهى خلاص
- يعني ممكن تخف؟
- اه ممكن، في جلسات زي تمارين كنت بعملها، علاج طبيعي، ساعدتني شوية أتحكم في كذا حاجة، بس في عملية صغيرة وحقن في العضلات اللي بيحصل لها تشنجات
- هتتعمل امتى الحاجات دي؟
- الشهر الجاي إن شاء الله
- وعينك؟
- الحادثة دي اللي أثرت فيا، عشان وقعت على لوح إزاز دخل في عيني من وقتها وأنا مابشوفش

أنظر إليه وعيناي تملأهما بالدموع، أريد معاتبه على تركي والبعد عني، ومعاتبه أيضًا على حرمانه لي أن أقف بجانبه وأحتويه كل تلك المدة التي اختفى فيها. شعر هو من صمتي إنني تأثرت، فأمسك بيدي:

- هسافر بره، وأعملها وهخف، ماينفعش ترجعي في حياتي وأبقى محروم من إني أشوفك.

ربت على يده، وقلت بصوت مرتعش:

- اتطمن
- اتطمني انتِ المهم، أنا مش خايف

صوته وهو يُطمئنني، جعل قلبي يقلق أكثر، شعور متضارب، بين سعادتي بإحتمالية شفائه، وخوفي عليه من تلك العملية، وأشياء أخرى كثيرة.

أوشكت النزهة القصيرة على الإنتهاء، بعدما مررنا بلحظات جميلة، موسيقى، وشاطيء، خضرة، سينما، جلوس، دفيء، ولحظات أخرى، أبدأ في تجميع أغراضه، وجدت على الأرض مذكرة صغيرة، بها رسومات رُسِمَت بيد جميلة بشدة! لكني صُدمت بالمرسوم!!

***

(چوانا)

الإسكندرية، ستاربكس سان ستيفانو.

أثناء جلستنا، بعدما ظل يبحث عن مكان نجلس به، بديلًا من مكاننا المعتاد المحتل بأشخاص غيرنا، أراه يجلس مشغولًا في شيء، يقلب في هاتفه بيديه وعروقه تزينها، اندماجه هذا جعل وجهه متأثرًا بشدة، فمه يمتد ٥ سنتيمترات من شدة الانتباه إلى الهاتف، أشعر بالانتماء لكل شيء يوجد فيه، عينيه الجميلتان ونظرتهما، عروق يديه، نبرة صوته، حتى اسلوب انتباهه إلى أبسط الأشياء، بساطته تضفي سحرها على كل شيء، لا داعي له أن يفعل شيئًا مبهرًا حتى يبهرني، يمكنه أن يضحك فقط، أن يغمض عينيه ويفتحهما، يمسك بفنجان القهوة ليأخذ رشفته في هدوء، يجلس ويقف، يمكنه أن يتنفس، فإن مع كل شيء يأتي منه، تنمو زهرة داخل قلبي. أكره أن أقطع انتباهه، لكني سأحاول بطريقة بسيطة:

- ها نشرب إيه؟ انتبه لي ولم يسمع ما أقول، لكنه انتبه، فأعيد عليه:
- هنشرب إيه؟ انت سرحان في إيه؟
- رحلة جميلة، أنا عاوز أسافر معاكي، ينفع؟ سؤاله أربكني، يسافر معي إلى أين وكيف؟ فمن المعروف أنه شاب وأنا فتاة، لم أفهم ما وراء سؤاله،

فأسارع في استفساري:

- نسافر ازاي؟ وفين؟
- اليونان، ماتقلقيش كل حاجة هتترتب، وماتخافيش على نفسك دي رحلة كبيرة وهنطلعها مع بعض

لم أزيد في استفساري لعلمي بحجم كرهه لتضخيمي لأمورنا البسيطة، ورؤيتها من مليون زاوية أخرى تشاؤمية، فأصمت ثم أوافق بشرط موافقة أمي، بالفعل يأتي لي بتفاصيل الرحلة، إنها آمنة بشدة، لأتصل بوالدتي وأقص عليها الأمر، بعد مناوشات ومناقشات، توافق، بشرط الأمانة، إنها بقدر خوفها عليَّ، لم تتخيل في يوم أن أسافر بمفردي إلى بلد أخرى، حتى في بداية الجامعة، كانت تكره اليوم الذي سأسافر فيه وأذهب إلى القاهرة وأتركها بمفردها في الإسكندرية، لكنها تؤمن بي بشدة، وتثق في ثقة ليس لها حدود، وأنا مسؤولة أمام نفسي والعالم كله بتلك الثقة، يكفي أنني هنا منها وإليها، إنها هي من جعلتني هكذا، من أعطتني الحق في الإنسانية، أقصى مراحل الإنسانية، وأنا مُدينة إليها بكل شيء. غرست بداخلي شعورًا لم ولن يتركني أبدًا، أن من الواجب علي دائما أن أحافظ على كوني مصدر سعادتها الأول، مصدر أمانها واطمئنانها، أنها وهبتني كل ما في حياتها لتجعلني فتاة تعلم جيدا ما تريد، برغم كل التوهة والتشتت الذي يتناوب من فترة إلى أخرى، لكن يكفي معرفتي بأن ملاذي هنا، بين ضلوعها، وداخل قلبها.

***

(جميلة)

أقلب في تلك الأوراق، لا أصدق أو أفسر أبدًا رسمه لي، الأوراق كلها عبارة عن رسومات سريعة؛ بعضها متقن والآخر تغلب عليه التلقائية الشديدة، لم يدون أي تاريخ لأعرف متى رسم كل هذا، أحتار على قدر سعادتي به، هل هو أصلًا من رسمها؟ لم أعرف منذ تلك السنوات أنه يرسم أو يحاول حتى، لم يحدثني عن ذلك من قبل. الغريب إن آخر رسومات وهو لا يرى، كيف فعل ذلك! كإنه يراني بالفعل، أسأله عن تلك الرسومات أم أنتظر؟ لكن إلى متى سأظل أنتظر ولا يحدث شيئًا! كيف نسير كل هذا معا ولم يعيد لي اعترافه بحبه بشكل صريح، إنني وبالرغم من سعادتي بتلك الرسومات وحيرتي بعدم تفسيرها منذ أن وجدتها، غاضبة بشدة، لم أكن أتخيل إنني في يوما ما سأعود مرةً أخرى له، سأظل أكتم في صمتي حتى أكاد الانفجار، وأنا أريد ألا أنفجر بوجهه، إنني أعلم بماذا يفكر، أعلم إنه لا يحب أن يصبح أناني ويجعلني أقع في حب شخص لا يرى ولا يسير، لا يعلم أنني أرى أن ما يفعله هي الأنانية بعينها، هو يعلم كثيرًا شدة تعلقي به، الشعور لا يكذب، القلب يعرف من يحبه حقًا مهما حاول الآخر إخفاء ذلك، يأكلني الصمت.

يتصل بي فجأة وأنا غارقة بذلك الشعور المتضارب، بمجرد أن رأيت اسمه هدأ كل ما بداخلي وخمد القلق، كإنه يجدد نبض قلبي ويعطيه حيوية ممتزجة بأمان مطلق. يحاول لفت انتباهي:

- إحنا جايين هنا عشان تفضلي مع نفسك كده كتير؟ قربنا نرجع إسكندرية وانتِ سايباني، ماتبقيش مملة
- هنروح فين؟
- تعالي بس الأول ونتفق

في غرفته، أنظم أشياءه، وبالي شاردًا بأشياء كثيرة، اشتقت لأمي كثيرًا، علمت إنه سيكون عامًا ثقيلًا منذ أن سافرت إلى إيطاليا من أجل العمل، اختيارها لإيطاليا بسبب جنسيتها الأساسية، وسبب آخر هو تعلقها الشديد بالبندقية والشوارع الإيطالية، وعدتني ذات يوم إنها ستأخذني إلى هناك، كان حديثها الكثير عن تلك البلدة يجعلني أشعر وكإنني ولدت بها، كأنها وطني الثاني، الذي لم أشاهده قط لكني أشتاق له.

إنني وبالرغم من حبي لوطني الأصلي، لكنني أريد أن أقضي شهرًا من كل عام في الخارج، أهدأ ويهدأ بالي، أرى مناطق لا تشبهني بالمللي مثل بلدي مصر التي تشبه روحي. أريد خبرات، مشاهدة أماكن ساحرة، مقابلة أشخاصًا جديدة، التعرف على أشياء لم أعرفها، خوض مغامرات، انتشالي من ركودي وصمتي المخبأ لكثير من الكلمات والشعور والفنون. أو بمعنى آخر وأصح؛ أريد التوازن بين هنا وهناك.

يقطع حبل أفكاري (فارس) حين يطيح بأشيائه في سلة القمامة، أذهب مسرعةً إليه فيصحح ما خطر في بالي:

- أنا اللي راميهم، حاجات مش مهمة، انتِ شايفة العروسة اللي على السرير دي؟

أنظر فأجد دمية جميلة، غاية في الرقة والجمال واللطف، ترتدي فستانًا ورديًّا، شعرها أسود تزينه ربطة ((فيونكة)) وردية.. إني أنبهر حقًّا:

- الله! حلوة أوي، إيه العروسة دي؟
- هدية عيد ميلادك، كل سنة وانتِ طيبة وموجودة جنبي، دي أقل حاجة ليكي يا (ما بِل)

أدهشني تذكره لعيد ميلادي الذي نسيته أنا من الأصل، غمر قلبي برقته كعادته، إنني كلما مر الوقت كلما عشقته أكثر، أجري لأمسك بدميتي وأحتضنها بشدة، أحتضنها وكإنني أحتضنه هو، وعيناي لامعتان، مرتجف صوتي من الفرحة والسعادة، أحببت أيضًا اسم (مابِل Ma belle –)

الذي يناديني به للمرة الأولى منذ عودتنا. تنطلق مني كلمات تعني كل معاني السعادة، أستطيع احتواء العالم بأكمله. أنظر له وأجد ابتسامته الهادئة ترتسم على وجهه البريء، وعيناه هو الآخر تدمعان فرحًا لإسعادي كذلك، هو حقًا مصدر سعادتي:

- انتَ مصدر سعادتي!
- وانتِ مصدر حياتي، كل سنة انتِ طيبة يا جميلة

ينبض قلبي لسماع تلك الكلمة التي هدأته واحتوته وربتت عليه، التي استطاعت أن تجعلني أبكي فرحاً، لمجرد سماعها بصوته اللطيف، أقول له «وانتَ طيب ومعايا في كل لحظة في حياتي» وأنا أرغبها بالفعل، أريدها أن تحدث، أن يظل معي إلى الأبد!

(چوانا)

بعدما قص علي رحلاته المتكررة إلى اليونان، تعلقه بها وانبهاره الشديد بكل ما مر عليه فيها، في كل مرة يذهب إليها، يتركها وهو يعلم إنه سيعود مرة أخرى، ذكر لي إن ذلك كان شعوره عندما أبعدته الأحوال عني، قال أنه حين تركني، كان يعلم ويؤمن بشدة أنه عائد، إن شيئ ما سيحدث يجمعنا مرةً أخرى، إنه يشغف بالفرس بشدة، لكنه يغرم بالبحر أيضًا، السفن والسير بين الأمواج، الزرقة التي بين السماء والبحر، حبي له أكبر من ذلك، حبه إلى اليونان، جزيرة ناكسوس بالأخص، حيث الأبيض والأزرق، الورود والأشجار، بالفعل سحرني وصفه، إن الأجمل في الرحلة؛ إننا سنكون معًا.

وصلنا إلى مكان الإقامة بناكسوس، بالقرب من العاصمة تشورا، اقترح علي (أصيل) إن يحجز غرف في شقة عائلية بروح دعابته، رفضت، رغم إنني بالطبع أتمنى ذلك، لكنه لم يحن الموعد. وهو يعلم ذلك وكل هذا في إطار (علاقة ليس لها مسمى) ولا نسأل عن مسماها، نعلم حدودنا بشكل مهذب، وأنا أحب هذا.

قررنا أن نبدأ بالشاطيء، هل سيكون رمليا أم صخريا، بعدما ذهب كل منا إلى غرفته ونظم أشياءه ورتبها، وقفت أمام المرآة، أشعر وكإننا سنتقابل للمرة الأولى، بحثت عن أجمل شيء بين ملابسي، صففت شعري، وضعت معطري المفضل، وربطة العنق تلك التي لا تتركني ابدًا، فوق رأسي القبعة ((باريـه)) هي تلك القبعة الصغيرة والأنيقة، التي

تشبه قبعة الضباط. تشعرني أنني في عصر الستينات، وتأخذني حين أرتديها إلى الأجواء الفرنسية الجميلة.

الآن بعد كل شيء، أنا جاهزة لمقابلته، يشعر قلبي بالتحمس لشيء ما، لا أعلم هل ذلك الشعور لأنني سأقابله، أم لأنني في بلد غريب؟ أم كل تلك المشاعر المتضاربة السعيدة الخائفة لإني معه في بلاد غريبة، تجربة جديدة لكنها من المؤكد إنها ستكون رائعة، وبالأحرى لأن اليونان رحبت بنا بشكل يجعلني من اللحظة الأولى أشعر بقربها إلى قلبي، ذلك الوقت علمت لماذا يحبها ويتعلق بها (أصيل) هذا التعلق الكبير وكإنها وطنه الثاني.

جزيرة ناكسوس، اليونان

أخرج من غرفتي فأجده أمامي، يرتدي معطفًا رمادي اللون، فوق بلوڤر أبيض، جميع الألوان تليق به، ابتسامته تزين وجهه الهادئ، يمد يده من أجل السلامات، أقرب سلام إلى قلبي هو الذي يحدث حين آراه، اقترح عليَّ ذهابنا للشاطئ، من المؤكد إن بساطته في كل مرة تطغى على كل شيء من حولنا، لا أعلم ما سر توتري ودقات قلبي المتزايدة التي تتصارع بداخلي قبل أن آراه، وحين ألتقي به يهدأ كل شيء، هذا الشعور الذي أحبه، ولا أستطيع التحكم فيه.

بعدما اقترح هذا تراجع:

- انتِ شفتي البحر في أماكن تانية، هوديكي مكان حلو أوي

شعرت بالراحة إنني كنت أفكر كيف أقول له إنني أريد الاقتراح الثاني:

- يا ريت، هتوديني فين؟
- حلاوة ماشوفتش منها قبل كده
- أكيد كل حتة هنروحها هتبقى حلوة، المكان كله حلو
- والله؟!
- إيه!
- أنا قصدي عليكي.. حلوة

ابتسمت بسعادة في عيني، سعادة شديدة تتملكني عندما يقول أي كلمة غزل صغيرة أو كبيرة. وابتسم هو الآخر.

***

إلى البلدة القديمة سيرا على الأقدام، في بداية السير كل منا مبتسما وفرحا بالشعور، بالسير مع شخصه المفضل، أسرح في كم التشابه الذي بين تلك الجزيرة وبين (أصيل) بسيطة، شوارعها جميلة، ذات ألوان هادئة ومريحة، أشجارها تضفي على روحي الحيوية، وزرقتها تحيطني بالسلام، والأبيض فيها مثل نقاء قلبه، بلدة بيضاء تغمرها الشبابيك الزرقاء، هي نفس روحه. يقطع صوته الأجمل ذو البحة الطيبة صمتنا

الجميل:

- تحسي إن الجزيرة صيفي، لازم تيجي معايا في الصيف هتحبيها جدا
- في الشتا أحلى أكيد، انت بتحب الصيف ولا الشتا؟
- كل حاجة وليها ميزة وعيب، بحب في الصيف حيويته وألوانه والبحر والأجازة والكلام ده كله، وما بحبش فيه الحر، بحب في الشتا الرحلات والمطر والهدوء اللي بيكون فيه! لو الدنيا قلبت تلج هتبقى حوار، انتِ بتحبي الشتا صح؟
- اه، بتضايق منه بس عشان الناس اللي ماعندهاش بيت، أو اللي شغلهم بيتعبهم في الشتا
- دول في الصيف والشتا والله، مش الشتا بس
- للأسف.

حاولت رجوع الكلام إلى النقطة السعيدة مرة أخرى بعدما شعرت بالوخز في قلبي وأنا أتحدث عن ذلك الشيء الذي يرهقني ويشعرني بالعجز، في حين إنني أنوي على فعل شيئًا لهم قبل مغادرتي من الحياة:

- بس حبيت الاتنين بعد كلامك عنهم
- مش عارف ازاي واحدة زيك بتحب الشتا
- زيي ازاي؟
- يعني شكلك بتسقعي بسرعة، إيدك تلج والجو هنا حلو أصلًا

وقف فجأة في ممر نسير بداخله، حائطه أبيض، مصابيحه اسطوانية كبيرة، مزينة بالأقمشة الملونة، وعيناه بنيتان بهما بريق ساحر، يداه دافئة، فاجأني باحتواء يداي ليدفئهما بعدما تأكد من برودتهما:

- بدفيهم بس

يعلم أنه أخجلني، لكن ابتسامته هدأت من توتري، أو تضاعفه! ذلك الشعور المتضارب، بين الأمان الكبير والتوتر المفرط، قد أتمنى أن أختفي، مع عدم انتهاء تلك اللحظة. يقترح:

- مش عاوزة تتصوري؟ خجلي يمنعني من ذلك، لكن سجيتي التي أكون عليها دائمًا معه ترفض كل شعور آخر أن يتخللها:
- نتصور مع بعض، تعالى أصورك الأول

ترك لي كاميرته ووقف كي أصوره، بالرغم من كثرة صوره بـ (ناكسوس) إلا إنه في كل إلتقاطة لصورة جديدة، يشعرني وكإنه هنا للمرة الأولى، يؤكد لي ما يدور ببالي حين قال وأنا أترك الكاميرا وأصوره بهاتفي: «نجحتي إنك تحسسيني إني أول مرة أجي ناكسوس، معايا أجمل بنت، وبتصورني بموبايلها!» أشعرني وكإنني فعلت معجزة!

- انت عمرك ما جيت مع حد؟
- لأ، كانوا ناس بيقترحوا بس كنت بغير على المكان منهم بصراحة
- وأنا؟
- مش عارف، حاسس إنك أول شخص الآية تتقلب معاه وحسيت إحساس غريب كده
- إيه هو؟
- إني غيران عليكِ انتِ من المكان

ثم ضحك بصوت خافت، وأخرج هاتفه لنلتقط لحظة جميلة، أو ليعلم إنني لن أجد الرد المناسب، لكنه لا يهتم بالرد مثلما يهتم بأن يجعلني سعيدة.

كل منا التقط صورًا للآخر، ومع الآخر، كانت السعادة تحيط بنا، سعادة عارمة، الشعور الذي لا مثيل له، إنه يؤكد لي في كل لحظة إن شعوري به منذ اللحظة الأولى لم يكن كاذبًا، حين كنت أراه عن بُعد طوال حياتي ولم يتجرأ أحد منا أن يبدأ بالتحدث، منذ زمنٍ بعيدٍ، كنت أراه ولم يأتي ببالي قط إنني سأحبه يومًا، إنني سأتحدث معه من الأساس، كنت أكن له كل شعور صادق، في نظري كان أكثر الشخصيات جاذبية فقط، لكن كان بنتابني شعور بالسعادة حين تتلاقى أعيننا صدفة في الشوارع، حين ذهبت الاسطبل حتى أبدأ مشروع تخرجي "نحت الفرس" ووجدته هو صاحب الاسطبل! توتر قلبي، وشعرت بنفس الشعور الذي لم يختفي أبدًا، نبضات القلب المتسارعة عندما تدخل، رغبة كاذبة في الاختفاء مع قمة الشعور بالأمان، ورغبتي الصادقة التي تريد أن تظل تلك اللحظة ممتدة إلى ما لا نهاية، وهو أمامي، أنظر له وينظر لي.

أؤمن بذلك؛ إن الشعور الأول، هو الأصدق.

أسرح في الأماكن الجميلة في طريقنا حتى وصلنا إلى البلدة القديمة، الشوارع المريحة، المكتبات التي تضخ بأعيننا البريق لتنير عتمة الليل، الأزقة المرصوفة بالحصى، وساحات الفناء، سيرنا معًا في هذه الشوارع الجميلة، بين المباني القديمة التي تعيدنا لزمن لم نكن في كامل وعينا أوانه، نجد بائعة الورود والهدايا التذكارية، ليذهب (أصيل) إليها، أنظر إليه وهو يتحدث اليونانية التي لا أعلم عنها شيئًا، أنا حقًا أراه معجزة.

ينهي كلامه معها وضحكه الذي يثير غيرتي إنني لم أفهم منهم شيئًا، ولكنه يمسك بيدي أمامها ويقول إليها «آجاپي مو» وهو يشير إلى يده، وإليَّ، فتبتسم هي وتعطينا تمثال صغير لشاب وفتاة يتعانقان، وتخرج منه الموسيقى.

أبتسم وأشكرها بالإنجليزية، فترد هي الأخرى بالإنجليزية، إنها سيدة لطيفة للغاية.. لكنني لا أفهم:

- انتَ بتقول لها إيه وانت بتشاور عليَّ
- آجاپي مو، يعني هبلة اعذريها

شعرت أنه يمزح:

- يا سلام! كداب
- أيوه شاطرة.. سيبك بس من كل ده، المهم دلوقتي ...

أنتظره يكمل حديثه فيصمت:

- ما تقول يابني، المهم إيه قول، انطق
- بتحبي الأسماك؟
- الجمبري والكابوريا اه، غير كده لأ
- طب نجرب هنا؟
- ماشي، ولا لأ أنا مش جعانة
- مملة، هناكل بقى بس مش سمك، أنا بكره السمك أنا كمان

ذهبنا لكي نأكل أيس كريم بالتوت، كنا سنذهب إلى قلعة ناكسوس لكنه فضلها في الصيف، نذهب لكي نتجول بين القرى الأصيلة الجميلة،

بين ممرات المشاة، التي تربط العديد من القرى مع الجبال الوعرة وبساتين الزيتون وكروم العنب المدهشة، مع المقاهي التي تملأ الروح، وأشجار التين الدافئة، أحببت Agkidia، Agiosالحياة اليونانية البسيطة، من خلال ميناء ناكسوس انتقلنا سيرًا على الأقدام إلى قرية Thaleleos وMelanes.

ثم توجهنا إلى قرية «فيلوتي» حتى نتسلق إلى قمة جبل زاس، وهو أعلى جبل في «سيكلاديز»، أحببت المدينة بجزرها، خاصة ناكسوس، شاهدت أبراج البندقية؛ بعضها أصبح متاحف، وأخيرًا، نمر على كورونوس؛ قرية جميلة جبلية، ممتلئة بالمعمار العريق، تحيطه الطبيعة الخلابة، والمناطق الأثرية الطيبة التي أجد روحي بداخلها.

***

(جميلة)

أخرج من الفندق، فندق (زاد المسافر) موقعه في أول طريقنا إلى القرية، تهت في البداية فخرجت من المدخل الخاص بالطريق، فتهيبت ذلك وعدت مسرعة، ثم خرجت من الباب الآخر المطل داخل القرية. أسير ببطء وأتأمل الورود البرتقالية التي لم أجدها في أي مكان في مصر غير ذلك، أنظر خمسة دقائق حتى أعود إلى (فارس) ونذهب لسماع أصوات العصافير التي تبهج أرواحنا، حقل الورود البرتقالية يلفت انتباهي، فبالرغم من بعد البرتقالي عن روحي منذ الصغر

- كلون وفاكهة أيضًا
- فإن هذا الموقف تحول ١٨٠ درجة، أصبحت أحبه، أشعر بالدفء فيه، كإن الدفء ترك كل الألوان حوله واختبأ في البرتقالي ودرجاته، أيضًا فاكهة البرتقال، تذكرني بالماضي «النوستالچيا» .. كعك البرتقال، عصير البرتقال، والشفاء الذي به.

نمر على بحيرة قارون، ويقص عليَّ حكايتها؛ إنها سُميت بذلك الاسم لامتلائها بكثير من الألسنة التي تنسب كقرن لمالك الأرض حينها، وتحولت من (قرون) إلى (قارون)، نستمر ونتأمل ونتابع الطيور التي هي في الأصل أتخذها كهواية ومتعة تفوق الحد، كم جمال لحظة رؤيتي للطيور وهي تحلق في سمائها، لتثبت للعالم أن تلك الأرض هي أرضها.

ثم إلى شلالات وادي الريان، عيني بين الخضر والوجه الحسن.. فيسأل بهدوء:

- انتِ عارفة إيه أكتر لعبة بكرها؟
- الأسئلة!
- أيوه عرفتي ازاي، شكلها معقداكي انتِ كمان
- أيوه شوية يعني، ممكن ألعبها مع كل الناس إلا انت
- اشمعنا بقى؟

أضحك وباسلوب مازح:

- عشان كل اللي لعبتها معاهم خسرنا بعض.. بس ده مايمنعش إننا في نص كلامنا نسأل بعض عن كل حاجة، تصدق أنا مش عارفة بحبها ولا لأ معاك!
- مش مهم، خلينا زي ما تيجي كده بلاش نحط قيود أو قواعد لكل حاجة

أستمع لكلماته وأشعر بابتهاج في قلبي، في الحقيقة أنا لا أحب المقارنة، إنها حقًّا غير عادلة، بالأخص إذا قارنت (فارس) بشخص غيره، لا تصح تلك المقارنة، لا توجد من الأساس، لكن بساطته قادرة أن تجعل كل شيء جميل مثله، بساطته، وخفته، جمال روحه، ورجولته، كل شيء فيه يطبع على كل ما ومن حوله بشكل لطيف، لطافته تفوق المعقول.

أثناء سيرنا أمام الشلالات والحديث، ساد صمت مفاجيء بيننا، أحب ذلك الصمت المتكلم، تصمت ألسنتنا وأرواحنا تتحدث، تتناغم وتتآلف،

نشعر بها، أؤمن إنه أيضًا لديه نفس الشعور. باغتني سؤال لا أعرف أصله أو بماذا سأستفيد من معرفة رده عليه «انت حبيت الفترة دي؟»

- اه، كنت فاكر يعني إني حبيت

أثار رده غيرتي، على الرغم من إنني كنت أتوقع ذلك أو كنت أعرفه بالفعل، لكني سألته لكي يثير غيرتي، أنا غبية:

- كنت فاكر ازاي؟
- أنا مقتنع إن الواحد بيحب مرة واحدة في حياته، الحب ده لو انتهى لأي سبب من الأسباب، مش هيكون حب حقيقي! وأنا عرفت ده لما حبيت بعدها، حسيت إني عمري ما حبيت قبل كده

تنزل كلماته على قلبي كالصاعقة، فهو يحب الآن وأنا مغفلة أم ماذا؟

- انت بتحب واحدة دلوقتي؟
- تقدري تقولي.. اه

ساد الصمت مرة أخرى، ثم يقطعه صوته:

- لا لا انتِ من الفانز ولا إيه؟ هبقى أعرفك عليها

أحاول ابتلاع بحة صوتي التي تدل على تغيير مزاجي ١٨٠ درجة الآن:

- فانز؟ اه اه طبعًا

يبتسم وننتقل معًا، في روح الصحراء.

أجلس وأمامي الجميع لأستريح، أنظر إلى السماء وقت الغروب، تشعرني بالدفء، وقليل من البرد الناتج عن مواربة الباب، عدم غلقه نهائيا، أو فتحه واستقبال وتلقي الرياح بكل شجاعة واستعداد. وأفكر، كل ذلك الوقت الذي مر بيننا، كل المواقف والشعور والكلمات التي حدثت بيننا، ولم يقل لي ماذا أعني له، يشرد تفكيري والليل يقترب، الليل الذي يتوهم جميعنا أنه يخفي الندبات التي بداخلنا، يبقظني أهل المكان بأكواب الشاي ((الاستكانة)) وإشعال النيران من أجل التدفئة، أجد رأس (فارس) على كتفي، مغمض عيناه، يقرب يده من يدي ليمسك بها، تتناغم أيادينا وتلتف بالشال الذي أرتديه من شدة البرد، أضع باقي الشال على رجله كي لا يبرد أكثر من اللازم، وهذا من المؤكد يشكل خطرًا على أعصابه، بلهجة تحمل الرفض:

- رجعي الشال اتغطي بيه ماتبقيش بايخة

شعرت إنه لا يحب أن أتعامل على أساس أنه مريض، فأمسكت بالشال وظلت يده بيدي، اقتربنا من النيران أكثر لشدة برودة الجو، قررت أن أعيش تلك الأيام معه دون انتظار شيء.

من قال أن اللحظة تمر مثلها مثل غيرها؟ لا ليس كذلك على الإطلاق، فإن اللحظة معه تقدر بملايين اللحظات الأخرى، علمت هذا جيدا عندما وجدته مرة أخرى، حين ذقت في بعده مرارة الحرمان، والشوق الذي لا حد له.

أمسكت بمذكرتي التي كنت أدون فيها قطوف من بعض الكُتَّاب المفضلين، اقتربت إليه وجلست، ثم استند برأسه على كتفي، حيث

أشرع في القراءة له، فأبدأ بكاتبي المفضل (إحسان عبد القدوس) وأنا أفكر في حالنا بشكل عام، يتساءل:

- يلا اقري يا جميلة
- ثواني هشغل موسيقى هادية
- صوتك أحلى موسيقى لوحده، بس ماشي يا ستي شغلي

أبتسم لوقع كلماته على قلبي، أشغل معزوفة

((River flows in you)) للعازف (ييروما) فينتبه مبسمًا لإعجابه بها، لتبدأ قراءتي من كتاب"ثقوب في الثوب الأسود"

بالمقطف:

«الموسيقى الهادئة تساعدك على التفكير في مشكلة، والموسيقى الصاخبة تساعدك على الهرب من مشكلة.» ليعلق:

- بس أنا حاسس دلوقتي إن كل المشاكل اتبخرت، موسيقى هادية وانت ساند على كتف حد بتحبه، يساعدك تبخر أي مشكلة، صح برده؟
- حد بتحبه؟
- طبعًا بحبه، قولي لي انتِ من يوم ما كبرتي كده وانتِ مابتحبيش حد؟
- كبرت ازاي إن شاء الله!
- نضج بقى وكده
- مابقتش بفكر في الحب، كده حرية أكتر

- انتِ مصدقة كلامِك؟ أصمت وأترك المذكرة، فيرفع رأسه من على كتفي:
- بما إنك بتقري لي إحسان عبد القدوس دلوقتي، هقول لك كلمة كان قالها، قال: «بكت لأنها كذبت، وبكت لأنها ليست حرة في قول الصدق.» ماترديش عليَّ بقى وكملي قراية..

أصمت مرةً أخرى، إنه صادقًا، كل شيء قاله حقيقيًّا ومناسبًا لشعوري الآن وأنا أكذب، أنكر حبي لأي شخص، فإنني أريد لو أبوح بكل ما بداخلي، إن منذ تركه لي وهو لم يخرج من قلبي قط، فإن حبه كان يزداد يومًا عن الآخر، كنت أشتاق للَّحظة التي سأراه فيها مرةً أخرى، مثل شوقي الآن إلى الإحساس برؤيته لي، برؤيته لدموعي التي انهمرت فجأة دون أن يراها. يقاطع صمتي حين يعيد الطلب مني بتكملة القراءة، وأنا غارقة في حيرتي بين الصمت وكتمان صوت البكاء، وبين عدم تشتيته والحديث بسرعة:

- في نفس الكتاب كتب عن الهدوء، قال: "إن الذين يبحثون عن الراحة في مكان هادئ، مخطئون.. الهدوء لا يريح.. بالعكس.. إنه أكثر إرهاقًا للأعصاب وللعقل من الضجيج.. فالراحة الحقيقية هي أن ترتاح من نفسك.. أن تجد ما يشغلك عنها.. وكل حياتك.. كل دنياك.. كل ما يحيط بك.. كل ذلك هو في داخل نفسك.. ومتاعبك ومشاكلك في داخل نفسك.. فإذا لجأت إلى مكان هادئ بعيد، فأنت تبتعد عن دنياك الخارجية، ولكنك لا تبتعد عن دنياك الداخلية التي تعيش فيها كل متاعب الدنيا الخارجية.. لأن الهدوء يتيح لك فرصة أكبر

لمواجهة نفسك.. فإذا بك تجد عقلك مشغولا، وأنت على ثلاثة آلاف ميل من مكتبك، بنفس المشاكل التي ينشغل بها عقلك وأنت جالس في مكتبك.. ويلم بك الصداع، وتتوتر أعصابك.. وكأنك لست في اجازة.. وكأنك لا ترتاح!"

وقال تاني:

"إن الذين يبحثون عن الراحة في مكان هادئ مخطئون، الهدوء لا يريح، بالعكس .. إنه أكثر إرهاقًا للأعصاب وللعقل من الضجيج .. فالراحة الحقيقية هي أن ترتاح من نفسك، أن تجد ما يشغلك عنها."

- انتِ عارفة يا جميلة.. الفترة اللي فاتت دي كنت بحس بكده، طول عمري كنت بحب الهدوء وبحس إنه أجمل حاجة، بس بعد ما حصل لنظري كده بقيت بكره الوقت اللي قاعد فيه لوحدي، اللي مابسمعش فيه حد بيتكلم جنبي أو معايا، التفكير كان بيموتني، مش التفكير بس! ساعات الفراغ كان هيموتني أكتر، تخيلي تحسي بفراغ من برا وجوا.. ببقى حاسس إني هموت، هنفجر خلاص من الخنقة، مش شايف غير سواد، حاسس حتى إن ودني كانت سامعة سواد! مش عارف أوصفلِك شعوري.. خايف.. تايه!

أستمر في التربيت على يده حتى يهدأ، ثم يكمل حديثه:

- انتِ من يوم ما جيتي وأنا حاسس إني بشوف، ببقى متخيلك بتتكلمي ازاي، قاعدة ازاي، رايحة وجاية، عينك بتبص فين،

شعرك مفرود ولا مربوط، كل حاجة، كإنك جيتي بنيتي لي حياتي اللي اتهدت..

- كلامك ده مش عارف بيأثر فيا قد إيه! أنا نفسي أعمل لك كل حاجة نفسك فيها، إني أشوفك مبسوط وكويس ده اللي هيفرحني، وبعدين انت فرحتني بإنك بتتخيل شعري مربوط ولا مفرود!

أنظر إلى المرآة، شعري مربوط كعادته، فأحاول فرده حتى يرى أنني جميلة، لكنخ يسبقني ويمد يديه فيفكه، بابتسامته ووسامته وخفته، ليجعلني أضحك وأنظر إلى عينيه، جميلتان، تذكرت المرة الأولى التي نظر لي فيها، ومغازلته لي، أحاطني بذراعيه وضمني بحنان، ثم قال لي:

«إن حبك الأول ليس حبك الأخير، بل إن حبك الأخير هو حبك الاول.» عارفة الجملة دي اتقالت فين؟

- في كتاب إحسان عبد القدوس "يا ابنتي، لا تحيريني مَعِك"
- طيب اسمعي الكلام بقى

يوم الخميس يمر بسلام، لكني لا أستطيع النوم، تقلبني أفكاري وحماستي يمينًا ويسارًا، أنظر إلى سطح الغرفة وأفكر في غدًا، ففي جلستنا اليوم أخبرني (فارس) عن مكتبة كبيرة هنا؛ لديهم ((book club)) كل يوم جمعة لمناقشة كتاب، هو يعرف جيدًا كم أنا مولعة بالكتب والفن، أغمض عيناي متشوقة لمقابلة حبيبًا وكتابًا.

(چوانا)

الخيول تستعد للتدريب من أجل سباق الأسبوع القادم، يشعر قلبي كأنني أحمل حبيبي بداخله، شعرت بداخلي ليلة اليوم أنه حبيبي، لا أعلم متى أو من أين، لكن قلبي يحكم.

للمرة الأولى أشعر وكإن أحلامي تقترب من الحقيقة، ليست مجرد كأحلام الأطفال التي كنت أشاهدها في السماء بعيدة عن يداي وأنا أقف على الهاوية، أتساءل أتلك هي اللحظة المناسبة التي يتوجب فيها الاندفاع؟ أرجو ألا يعرقلني شيء، كلانا لديه تحفظاته، ولكن على أحدنا أن يفعل؛ أن أعبر على ذلك الشعور النادر، لا بأس، يكفي أنني أطلق صوتي في هذا الفناء الواسع وهو معي، وجوده بمثابة مكافأة جميلة من العالم في شكل اطمئنان، وحرية، زخات المطر على وجهي ووجهه وأنا فوق الفرس وهو يمسك بيدي لكي يساعدني على النزول من فوق (مسك) وندخل سويا كي نحميها في بيتها، ثم أطلب منه أن نخرج إلى المطر معًا، فيفاجئني:

- أطلب منك طلب أنا كمان وهتوافقي عليه من قبل ما أطلبه؟

أنظر له وقطرات المطر الغزيرة تسقط فوقنا، وأبستم وبدون تفكير:

- موافقة
- طيب يلا نرقص

أمسك بيدي ويده الأخرى تلتف حولي، اقترب، ثم بدأ في الرقص، في اللحظة التي انغلقت جميع أبواب الحزن في قلبي، وكدت أن أحتضنه بداخلي لولا الخجل الذي يسيطر عليَّ. نرقص ((تانجو)) على نغمات ونغرق في كلماتها؛ السيدة فيروز:

يا ريت انت وأنا بالبيت

شي بيت أبعد بيت

ممحي ورا حدود العتم و الريح

والتلج نازل بالدني تچريح

يضيع طريقك ما تعود تفل

وتضل حدي تضل

ويزهر ويدبل ألف موسم فل

وتضل.. حدي تضل.. حدي تضل

وما يضل بالقنديل نقطة زيت

يا ريت.. يا ريت!

بعد انتهاء الرحلة والرجوع.. الإسكندرية، اسطبل الخيل.

اسكندرية، على كورنيش البحر، السماء ممطرة بشدة تحمل الرقة، نسير بكل سعادة حتى نصل إلى باب منزلي من الخارج، نقف وجهًا لوجه، كلانا مبتسمًا وصامتًا، وكإن أرواحنا تتحدث وتتفاهم وتتناغم، يخرج من معطفه "زهرة بيضاء جميلة" ويدفعني برقة داخل البوابة وهو يقف بالخارج:

- ادخلي جوا عشان كفاية عليكي شتا، خدي الوردة دي!

أنظر إليه وهو يتحدث ويفعل كل هذا، بعينين لامعتين:

- أنا مش عارفة أقول لَك إيه!
- ماتقوليش، خدي بالك من نفسك
- حاضر، حلوة أوي الوردة على فكرة، أنا بحب الورد الأبيض
- ما أنا عارف

نبتسم ثم أخرج من البوابة دقائق قليلة تحمل ألطف شعور، ليلتقط بهاتفه لنا صورًا في تلك الأجواء، أول صور تجمعنا، إنني سعيدة للغاية. تفاجئنا السماء بشدة هطول الأمطار، يسير خطوتين وأنا أقف أنظر إليه، ثم يستدير ويعود مسرعًا:

- بقول لِك.. هو ببعد رقصة جميلة تحت المطر المفروض نقول إيه؟
- إيه.. مش عارفة!
- بحبك

يسود صمتًا بين نظراتنا، ثم يقطعه:

- بيقولوا كده يعني.. تعالي نرقص

يجذبني إليه، ثم أغرق في عينيه.

في اليوم التالي

أستيقظ من نومتي الهادئة اليوم، أنهض، الاستحمام بماء دافيء في ذلك البرد القارص بدايته صعبة، لكنه جميلًت، أنهي حمامي الدافيء، مع غسيل الأسنان، البيت هادئًا جدا، تجلس أمي تشرب كوبًا ساخنًا من القهوة، بيدها بعض الخيوط التي تغزلها بيديها، كأجنحة الملائكة، فتخرج لنا في النهاية بقطع فنية.

تنظر لي ونبتسم لبعضنا البعض:

- صباح الخير يا حبيبتي
- صباح النور يا روح قلبي

أذهب إلى المطبخ، وأنا أرتدي شالًا كبير الحجم، أحب الملابس التي أغرق بداخلها، تضفي على روحي الشعور بالأمان والراحة، أمسك كوبي المفضل، أبيض به رسمة (روميو وچولييت) أصنع كوب الكاكاو وأذهب لأمسك هاتفي لأتابع كل ما هو جديد، والشيء الأهم، أرسل إلى (أصيل) أنني أشتاق له.

أمسكت بالهاتف فوجدت (صابر) يتصل.. أرد فيخبرني إنه وجد عملًا مناسبًا لي، هو يعلم مسبقًا إنني أبحث عن عمل لكني لم أجد الذي يشبهني.. تبهجني كلماته:

- كلمت د.أحمد إنك تيجي تشتغلي معانا
- بجد يا صابر!
- اه والله، تماثيل، وهو قال لي هيفتح الدور التاني ليكي مخصوص ونعمل المشروع ده أنا وانتِ
- موافقة جدا، فرحتني يا صابر مش عارفة أشكرك ازاي!

أجد الفرحة في صوته أيضًا، إنه يريد فعل أي شيء ليجعلني سعيدة، لدي رغبة شديدة أن أحكي له عن (أصيل) وأجعلهما أصدقاء.

أتصل به فورًا لأخبره عما فعله (صابر) من أجلي، لكن رده فاجأني، اسلوبه وتلقائية رده جعلتني لا أجمع كلماتي بشكل صحيح، تشتت عقلي من صوته المنفعل:

- مافيش الكلام ده، انتِ مشغولة بمشروعك دلوقتي ركزي فيه وفكك من الهبل ده
- هبل! أنا نفسي أشتغل من زمان، أنا مستغرباك! انت متضايق ليه؟
- انتِ عمرك ما حكيتي لي عن صابر ده قبل كده ليه؟

أكذب شعوري، أحاول تصديقه أيضًا! إنها غيرة، يشعر بالغيرة! أم هو شعور تلقائي على أي شيء تشعر أنه ملكك وترى غيرك يملكه مثلك، تخاف أن يسلب منك، فتشعر بالغيرة! كفِّ عن التفكير يا رأسي!

ليكف هو تفكيري بانفعاله:

- مابترديش ليه؟ مين صابر ده؟
- صاحبي وزي أخويا، الوحيد اللي طلعت بيه من الكلية
- وهو قالب الدنيا عشان حضرتك ماتزعليش ليه كده!
- عشان هو كويس أوي، من أحسن الناس اللي قابلتهم في حياتي
- طيب اسكتي ماتعصبينيش عليكي أكتر من كده

إنه بالفعل شعور الغيرة! يا سعادتي.. سأنتظر مدة قليلة حتى يهدأ ثم أذهب له، لنتحدث في ذلك الأمر وأفهمه طبيعة الحال بيني وبين (صابر).

وأنا ذاهبة إلى المقهى، أهاتف (أصيل) لأطلب منه أن يأتي ونجلس معًا، نتحدث وأنظر في عينيه. المكان خشبي، كل شيء فيه مصنوع من الطبيعة، حائط بألوان خشبية، زرع، حتى الأكواب تشبه جزوع الشجر، والمقاعد، كل شيء هنا من الطبيعة، لهذا أفضل ذلك المكان. أتابع خطواته، واثق الخطى، يدخل «الكافيه» ويقترب، الأسود يليق به، في الحقيقة؛ كل الألوان تليق به، يأتي ويجلس، يدير وجهه عني ويطلب قهوته من النادل، ثم يخرج هاتفه وينظر فيه.. أتعجب من فعله، يتجاهلني بشدة كإنه يجلس بمفرده ولا يوجد شخص ينتظره هنا.. فهو يتجاهلني، يقصد هذا، وأنا أعلم لماذا لكني أفتعل التعجب من فعله، أطرق على المنضدة طرقتان، ينظر إليَّ ثم يستدير، يأتي النادل بالقهوة وكل هذا ولم تخرج كلمة من أفواهنا، بصوت متردد يشكر النادل، ثم يمسك يدي، يمسك بيدي بقوة، وينظر في عيني:

- أنا عاوز أتكلم معاكِ، بس مش هنا

يبدو عليه التوتر، يداه ترتعشان من البرد، شعرت إنني أريد أن أحتويه داخل ضلوعي التي شكلت له، أود أن أحتضنه بشدة ولين حتى يدفأ، أريد أن أجعله يطمئن.

ربت على يديه ونظرت في عينيه لأطمئنه:

- هنتكلم، حصل حاجة ولا إيه!

ثم ذهبنا إلى الآتيليه، لأول مرة يأتي إلى هنا، عند دخوله يتفحص المكان، يدقق في اللوحات والتماثيل والحوائط، يطيل النظر في لوحة (العودة إلى الديار) للفنان (هانز أدولف) التي أعلقها على باب الآتيليه، والتي صور فيها الفنان إحدى الجنود عائدًا من الحرب وقد ألقى برأسه المتعب في حضن حبيبته، التي تمثل في اللوحة البيت والوطن والأم.

يبتسم هو فتتحول حياتي إلى جنة، ابتسمت إليه فاقترب مني وضم يدي بقلبه، أخجلني لكنه اطمأن، أتى إلى مأواه بعد سنين من الضياع، كل الكون تجمع في عينيه في تلك اللحظة، جلسنا وهو ممسك بيدي، ولم يلتفت إلى غير عيني، مر وقت لا أحدد ماهيته، لكنها لحظات جميلة، يسري في عروقي دقات قلبه، أطمئن لإني أشعر بتبدد قلقه نهائيًا، كإن شعور الأمان يلتف حولنا فنتناغم.. يتحدث بصوته الذي يأسر روحي:

- بحبِّك

إنه حقًا يقول ما سمعت، يحبني؟ إنه قال أحبك! لا أصدق ما أسمع، أشعر وكإنني في عالم آخر، تلمع عيناه وهو يتحدث، يجعلني أكاد أن أحتضنه، أخبئه من العالم بداخلي، ينبض قلبي بشدة، يأخذني ونذهب إلى اللا مكان، نجلس في «الروف» ناظرين إلى السماء، اللحظات غير المرتبة تكون الأفضل غالبًا ليطيل حديثنا، ويخبرني في آخره أن أعمل كما أحب، وسيصبح معي دائمًا.

إلى القاهرة معه.. يذهب هو من أجل تدريبًا خاصًا بعمله، وأنا إلى الجامعة. ليل اليوم التالي، أمام كلية الفنون الجميلة بالزمالك .

بعد مدة انقطاع كبيرة عن الكلية، وفقدان أمل في أن أجتاز ذلك العام الدراسي؛ عام التخرج، بفارغ الصبر، ظللت أنتظر مشروع التخرج في كلية كانت وما زالت حلمي الذي أريد، وأسعى له.

فنون جميلة .. انتِ لي

لم يكُن من حظي أن أحظى يومًا بنتائج دراسية باهظة، اعتدت دائمًا أن يكون يوم النتيجة حالك السواد من كل جانب، أصدقائي أدوات الرسم منذ طفولتي، لم أكن أعلم بوجودِك وقتها، علِمت به في بدايات الصفوف الابتدائية وكنت أنبهر بكل من كان فيكِ، تفاصيلك المرسومة في مخيلتي، مجرد اسم يصف جمالِك، حلمت مِرارًا وتكرارًا بيوم اللقاء الأعظم.. بيننا.

حبيبتي كلية الفنون الجميلة،

اشتقت لجمالك، أعلم أنك أيضا تشتاقين لتلك الروح الجميلة التي أذهبها بعض ساكنيكِ الآن، انتِ لي.. وخُلقت لكِ، يسري في روحي شيء غريب أعلم أنه أتاني من الله، وهبني إياه لكي أصبح يومًا منك، أتعلم وأُعلم فيكِ، أستنشق هوائك بكل حب، وتداعب شمسك عيني فأبتسم برضا كبير عن حالي، أجلس في حجراتي الكثيرة.. المدرجات، الآتيليه، بين الأشجار، والجلسات في الساحات الكبيرة الجميلة، أمام منحوتاتك، ومحبينك، نستمع للموسيقى أو ما نحب، ونرسم تحت الأمطار مرة، وتحت الشمس مرة أخرى، في كل زمان ومكان، يكبر الفن بداخلنا.. فيصبح كل شيء جميل.

خُلقنا من أجل بعضنا البعض، فبأي عقل نفترق بهذه الطريقة غير اللائقة؟

بعد فترة طويلة من السير في طريق الحلم، معاناة، سقوط، نهوض، سقوط مرات أخرى كثيرة، ملل، فتور، لا مبالاة، صحوة.. إلخ، لا يهم، الذى يهم هو أنك الآن لستِ بين يدي، ولستُ بداخلك، أضاع حلمي الآن أم إلى أين أنا ذاهبة؟

أحاول دائمًا أن أكون لطيفة مع الجميع حتى كادت روحي أن تتمزق - مثل بوكوفسكى- كنت أرسم الابتسامة في المباركات إلى زملائي المقبولين بك، المحتفلين، المستحقين وغير المستحقين، سعدت من أجلهم لكن حزني كان أكبر بكثير، على فقدك، على وجود البعض الذي لا يحبك داخلك، وأنا ليس لدي ذلك الحق، ذلك الحلم الذي يحققه غيرى،

بالرغم من عدم حبهم لكِ، البعض يدعي حبك، والآخرون يقتلونك، وأنا أحبك.. وأقلاء فقط، بعضهم حالفه الحظ والتوفيق والبعض الآخر يجلس حزينًا، بعيدًا عن روحك الجميلة المفقودة.

أعلم أنك تشعرين بحرقتي، تعلمين ببكائي سرًّا، ودموعي المحبوسة عند ذكر اسمك أمامي، كلما رأيت أي شيء تربطه بكِ صلة، بكيت، بكى قلبي، حتى الآن وأنا أبكي، وتمر عليَّ لحظات ضعف كثيرة أمام ذلك البعد بيننا، تحتبس أدمعي لكن بثقة العودة لكِ يومًا ما.

أتدرين؟ أعدك أني سأعود مرة أخرى، ونبني سويًّا تلك الروح التي حرمت منها بأسباب ليس لديها قيمة، لكنها تهدم أحلامًا، وأحلامي لا تُهدَم، اعذريني مؤقتًا، واسمحي لبعض من بكِ الآن أن يتعلم كيف يصبح فنانًا، لا تقلقي على من يحبك، فإني أنتظر موعد اللقاء حتى لو أغلقوا جميع أبوابك رغمًا عنكِ، سنعود يومًا ما ونبني مجدًا هنا من جديد، ستذهب أجواء النادي، وتعود روح الفنانين حولك، تعيد فنك وروحك.

أنا الآن مستمرة، أرسم دائمًا، أنحت مرارًا، أعيش بروحي التي تشبهك كثيرًا، سنلتقي قريبًا جدًّا، وذلك اللقاء سيكون أقوى من لو كان حدث من قبل، لأنك ستجدين فنانة روحًت وإبداعًا، تحبك شدة كعادتها. سأتعلم وأقرأ وأرسم وأنحت وأنمي موهبتي الثمينة، حتى نلتقي، ونبدأ طريقًا جميلًت، أرقى مما يحدث الآن، لا يوجد التزام بالنص، نحن فنانون يا جميلة، لا تُقيدنا قواعد وسطور، لا نفتقد الكثير من الفن كما يفتقدون، ولا نجتمع معًا حتى نلهو فقط، سنطيح بالغيوم، وننشل الغبار منكِ.

تزيد أحلامي يومًا بعد يوم، وانتِ حلمي الثابت، الأول دائمًا، سأكون يومًا ما أريده، سأحقق كل ما بداخلي من أحلام، ستخرج جميعها محققة للواقع يومًا ما، لا أعلم موعده، لكني أثق بالله، أشعر أنه بجانبي دائمًا، فيطمئن قلبي، ويزيد سعيي وسيري للأمام، ولكِ، ولكل ما أحلم به.

انتِ لي، وخُلقَت روحي لكِ، اطمئني سنلتقي يومًا ما. أحبك بشدة. يقطع حبل أفكاري، دكتور (كامل) حين ينطلق من فمه كلمات لا أريد سماعها:

- مش قلت لك هتيجي لي بنفسك؟
- هاجي لمين؟ انت اتجننت؟!

يقترب مني، والشارع فارغًا تمامًا، خطوة خطوة، يبدو أنه ثمل، ممتليء بالثمالة، ملأني بالرهبة والرعب، خفت من كل شيء، أول من جاء ببالي هو (أصيل) أحاول الإمساك بهاتفي من الحقيبة فتقع، وهو يقترب كلما ابتعدت عنه، أتصل بـ (أصيل) أخيرًا يرد بعد رنتين، فأعلو بصوتي:

- الحقني يا أصيل أنا عند الكلية!

ثم يقع مني الهاتف مع جذب د (كامل) إليَّ، وأنا أقاومه بكل قوتي، أسمع صوت (أصيل) من الهاتف البعيد، يتحدث في الهاتف وصوته مرتفعًا، ثم بعد دقائق أجده أمامي، يشد الدكتور الحقير إليه ويبرح فيه الضرب، ثم يقف فجأة وينظر كلاهما إلى بعضهما البعض، صدمة بأعين دامعة، ينظر الدكتور إلى الأرض، و(أصيل) إلى السماء وهو يبكي، وأنا أقف لا أفهم شيء، يأتي (أصيل) إليَّ، يحتضني بشدة ويبكي، أبكي أنا

الأخرى وأنا أتعجب مما يحدث، لكني أريد أن أبكي، أبكي بين ذراعيه، للمرة الأولى أشعر بذلك الشعور حقًّا، الديار، الملاذ، والأمان، بين يديه.

أنظر إليه وأنا أتساءل «فيه إيه؟! أنا مش فاهمة حاجة»

فيرد: ده بابا

***

(جميلة)

مناقشة كتاب اليوم هي رواية "قواعد العشق الأربعون" للكاتبة (إلياف شافاق).

حين علمت هكذا سعدت بشدة، فتلك الروائية من أفضل الروائيين الأقرب إلى قلبي، وفكرة الرواية نفسها، أحببتها حين قرأتها أكثر من مرة ولم أشعر بملل قط. وكيفية وجود الحب داخل كل منا، إنني حين أفكر في الحب، أشعر بقليل من الخوف، أخاف أن يمر العمر ولا أقابل من أشعر معه بكل معالم الحب والعشق، ثم أعاود؛ الحب ليس له معالم، ليس له «كاتالوج»، لا يمكنني أن أنظر إلى قصة حب لمحظوظين، وأتمنى تكرارها بالمللي معي، كل شخصين لهما منعطفات وتقلبات خاصة، ما بالي بكل شخص وما بداخله من أشخاص متقابلة؟

يبدأ أحد الجالسين بالمكتبة الحديث عن الرواية نفسها لا القواعد فقط، فيخبرنا ما هي، من المؤكد إنني كنت أعرف جيدًا (إيلا) غير السعيدة، وزوجها طبيب الأسنان الناجح، وعلى صعيد آخر عرفتني على شمس التبريزي وجلال الدين الرومي. تفتح المناقشة بإبداء السؤال عمن يريد أن يتحدث عن تأثير تلك الرواية في حياته، فأنظر إلى (فارس) وأمسك بيديه لكي يشعر بما أنا فيه، إن عدم رؤيته هذه كانت تساعدني على الجرأة، تجريد المشاعر من أي شائبة، فإن إمساكي ليده الكثير لم يكن يحدث إلا في تلك الظروف التي أتمنى إنهائها، ولكني تعلمت كيف أحبها، أحبه وأحب نفسي، وأحب اللحظة التي تمر ولن تعود ثانيةً. وأنا أدقق في تفاصيله، أنظر لوجهه، اللحية البنية شديدة الخِفة، رموشه

المتحركة مع جفونه الرقيقة، يده فوق يد الكرسي، إنني أشعر به حقًّا، لا يوجد أصعب من شعور العجز، ولكن هو لم يعجز..

يتشتت فكري بصوته ذو البحة العزباء:

- انتِ بتحبي الكتاب ده؟
- اه أوي
- يا بخته

نضحك لبعضنا البعض، ويفاجئني وكأنه يسمع ما يدور ببالي:

- انطقي واتكلمي معاهم، واتناقشي في الكتاب، انتِ قاعدة ساكتة بتضحكي وخلاص
- هيتكلموا في القواعد نفسها دلوقتي، اسمع بقى
- لأ مش سامع غيرك أنا
- انت عارف، أنا أكتر حاجة حبيتها في الكتاب ده إنه عرفني إن مافيش حل لأي حاجة في حياتنا أحلى من الحب، بس لما يكون كل الأطراف مساعدة على ده
- أنا مقتنع بكده..

ربت على يدي مبتسمًا، نستمع إلى القواعد ونتحدث بها.

«لنبدأ بالقاعدة الأولى: ولا أقول لكم، مين يطلع يتكلم عن أكتر قاعدة أثرت فيه في الكتاب؟» تنطلق تلك الكلمات من فم أحدهم، فأعجب بالفكرة، أشير بأنني سأتحدث، للمرة الأولى أندفع في التحدث، فإن أثقل الأشياء على قلبي أن أدير حديث بين جماعة، لكني أشعر بالتغيير، أشير

مرة ثانية بصوتي لكي يعرف (فارس) ثم يبتسم لي (أحمد) الذي اقترح الفكرة. ينبض قلبي توترًا، أبتسم ثم أبدأ في الحديث:

- احم.. أنا أول مرة أتكلم قدام ناس كتير كده فاعذروني لو هبلت.. يضحك الكثيرون وعيني لا ترى إلا إبتسامة (فارس) التي تزيدني ثقة، فأكمل حديثي:
- "قواعد العشق الأربعون" من أكتر الروايات اللي أثرت في حياتي، في نظرتي للحب ولطريقتي في التعامل مع نفسي، وديني، وربنا، أثرت أوي في كل حاجة في حياتي، صعب أقول على قاعدة؛ أكتر قاعدة أثرت! لكن ممكن أقول الكذا قاعدة اللي حابة أتكلم فيهم دلوقتي أولهم القاعدة الخامسة:

«يتكون الفكر والحب من مواد مختلفة. الفكر يربط البشر في عقد، لكن الحب يذيب جميع العقد، إن الفكر حذر دومًا وهو يقول ناصحًا: "احذر الكثير من النشوة" بينما يقول الحب: "لا تكترث! أقدم على هذه المجازفة". وفي حين أن الفكر لا يمكن أن يتلاشى بسهولة، فإن الحب يتهدم بسهولة ويصبح ركامًا من تلقاء نفسه، لكن الكنوز تتوارى بين الأنقاض والقلب الكسير يخبئ كنوزًا.» إن تلك القاعدة تجعلني أقف أمامها، أتأملها، أؤمن بحجم قوة الفكر وتأثيره، لكن يذوب قلبي أمام الحب، الذي يجعلني قادرة على كل شيء، أنظر إلى (فارس) وأنا أتحدث، أجده ينصت وينظر في الأرض، لا يراني، أعلم ذلك، لكنه يشعر بكل ما أقول، إن كل منا لا يشعر ويتعامل بذلك الحب الضخم، بلا جدوى، لا تذهب الكلمة اللينة هباءً، إنها ترشدنا لطريق لا نفكر أن

نرى آخره، لكن كل منا يتخيله، بالحب، لا يوجد نهاية إلا لكل ما هو قبيح، إما في الحب؛ فكل نهاية ليست إلا بداية لحياة أجمل، لأكمل:

- إحنا مش محتاجين قاعدة، مش لازم كل حاجة تكون منطقية، مش شرط إن يكون فيه خطة وطريقة لكل حاجة في حياتنا، ليه نقعد نحسبها ونتعب نفسنا وبالنا، ونطلع خسرانين في الآخر، فيها إيه لما نجازف؟ حتى لو خسرنا، على الأقل مش هنتعب روحنا، مش هنلوم نفسنا ونقول كلمة "لو كُنا عملنا كذا، كان هيحصل كذا.." أنا عرفت كده لما حسيت إني بحب، إني مستعدة أجازف، وآخد أنا الخطوة، ماقعدش أحسبها وأضيع حياتي في ثوابت؛ بالنسبة لي، مالهاش أساس.

أصمت في ذهول من قدرتي على الحديث هكذا، أنا الصامتة التي بداخلها يدور صراح بين العقل واللسان قبل نطق الكلمة، قدرت على قول جمل متناسقة كهذه أمام حشد من الناس. يعلو صوت (فارس) بين الجميع تشجيعًا لي: «ابهرينا كمان وكمان، شجعوها يا جماعة سمعت صوتها أخيرًا!» إنه لا يعلم أن بتلك الكلمات والنبرة التي أصمت أمامها، لا يجعلني أتحدث، بل أتشتت وأنشغل بصوته الذي أقع حبًّا فيه، لكنه أيضًا أجمل دافع يمكنني التحدث من أجله، ولوصفه بداخلي، فإنه هو الحب الحقيقي الخاص بقلبي. لتهتف الأصوات الأخرى بكلمات تشجيعية ومزح وتصفير وتصفيق، تجعلني أضحك من الخجل والموقف.

- أحمد: طيب إيه القاعدة التانية اللي أثرت فيكي؟

أجيب بحيرة شديدة: الأربعين قاعدة أثروا فيا! ممكن أكترهم السادسة والتاسعة، والاتناشر، والأربعين! أقولهم ولا هطول عليكوا؟

- فارس: قولي طبعًا، ماحدش بيجري ورانا، ده انتِ لسه قايلة بلاش نحسبها..

القاعدة السادسة: «تنبع معظم مشاكل العالم من أخطاء لغوية ومن سوء فهم بسيط. لا تأخذ الكلمات بمعناها الظاهري مطلقًا. وعندما تلج دائرة الحب، تكون اللغة التي نعرفها قد عفى عليها الزمن، فالشيء الذي لا يمكن التعبير عنه بكلمات، لا يمكن إدراكه إلا بالصمت.»

عشان كده بقدر الصمت، طول عمري شايفة الصمت غير السكوت، من نظرة الناس لأي شخص صامت، إنه ساكت، مش عاوز يتكلم، أخرص، لكن الموضوع مش كده، ساعات مابنبقاش لاقيين كلام، فيه أوقات اللحظة فيها بتكون أقوى من الكلام، ساعات بفضل الصمت من أي رد فعل، أحلى من الزعيق مثلًا، والله معبر أكتر، وأقوى، ساعات من فرحتي مابقاش عارفة أعبر عن حالتي وقتها..

أكتر أوقات بعرف أتكلم فيها أوي، وبعرف برده أبقى صامتة فيها جدًّا، هي لما أحب.. يسود الصمت داخلي وخارجي وحولي، وتصمت حتى الأنفاس، فأكمل.. «انتوا ساكتين ليه؟ هي مش مناقشة؟ ولا الصمت اتحكم من كل واحد فيكوا لسبب معين وسايبين الغلبانة تتكلم، اتكلموا معايا» كعادة (فارس) لا يتركني أبدًا -بعد رد (رهف) البنت السوداء ذات الملامح الجميلة، إنها لا تعلم قيمة الصمت لهذا لا تتحدث فيه-: أنا بسكت عشان مش عارفة أقول إيه!

ليبدأ هو حديثه:

- أنا ممكن أكلمك عنه، ده حبيبي ده
- مين ده؟
- الصمت يا جميلة، عارف كويس قيمته، أنا قلت لك إني ممكن أكون بحب، صح؟ عرفت ده بقى لما بقيت أقعد ساكت معاها، مابنتكلمش، بس النظرة منها بجبل كلام على قلبي، ببقى حاسس إننا بنتكلم، غريبة أوي، إحساس فعلًا أول مرة أحسه، مابحبش أكتر من صوت كلامها، وصوت سكوتها، شفتها قبل الحادثة، عشان كده بقيت عارف قيمة نظرتها، قبل ما أتحرم إني أشوفها، بالمناسبة إني حابب أقول لك خبر، العملية قربت، وعاوزها تكون أول واحدة قدامي، أول شخص أشوفه، أنا مش هتولد من جديد، عشان مافيش حد بيتولد من جديد، غير لو كان مات قبلها، وأنا مستحيل أموت وهي اللي علمتني إن جوا صمتنا دنيا تانية.. موجودة معايا، أنا هتجدد، ومتشوق لده جدًّا، زي ما قاعدة ٣٨ بتقول.

فاجأني حديثه بأشياء كثيرة، سعادتي باقتراب العملية لم يمنع دموعي من الانهمار، وفرحتي بكلماته وغيرتي أيضًا لو كان يقصد بها غيري، لكن شعوري بها أنها لي، كيف علم القاعدة الثامنة والعشرين، عُدت إليه، ذهبت كي أحتضن يده، انطلقت إليه ولا يهمني من حولي، لا يهم من يراني، إنني سعيدة الآن بشدة، أشتاق للحظة عودة نظره إلى الحياة. يكسر حدة الموقف (أحمد) حين يقول: «المناقشة قفلت النهارده دراما، ولا رومانسية مش عارف!» ليجعل الجالسين يضحكون، ويضفي خفة

على المشهد الذي تحول إلى دراما، يعتذر (فارس) لذلك التحول، ونذهب معًا مودعين من جلسنا معهم، تاركين لهم الحديث عن باقي القواعد الأربعون؛ قواعد العشق، الذي لم تكن بقواعد، بل بأشياء نؤمن بها بداخلنا، تضفي علينا السلام، وتجعلنا نعشق.

- تقول القاعدة الأربعون:

«لا قيمة للحياة من دون عشق. لا تسأل نفسك ما نوع العشق الذي تريده، روحي أم مادي، إلهي أم دنيوي، غربي أم شرقي.. فالانقسامات لا تؤدي إلا إلى مزيد من الانقسامات. ليس للعشق تسميات ولا علامات ولا تعاريف. إنه كما هو نقي وبسيط. العشق ماء الحياة، والعشيق هو روح من نار ! يصبح الكون مختلفًا عندما تعشق النار الماء.»

قواعد العشق الأربعون

***

(چوانا)

أربعة حوائط بنية، مكتبة ضخمة، لوحات معلقة، ومكتب وكراسي.. أمي بعدما أتت مسرعة من الإسكندرية، ودكتور كامل وأصيل وأنا، في مكتب الدكتور، يجلس د(كامل) على مكتبه، رأسه بين يديه، وأنا في صدمة من كل شيء يدور حولي، يحاول (أصيل) الاعتذار عن كل شيء، وهو لم يذنب، إني أعذره حقًّا إنه لم يحب أن يذكر اسم والده في كلامنا، حتى لو كان يعلم قصتي مع الكلية، أنا بالفعل لم أخوض في تفاصيل، لم أذكر له إن دكتور (كامل) هو الذي يقف عقبة في طريقي داخل ذلك العام الثقيل، تلاقي أعيننا تشعرني بالخجل، للمرة الأولى، هذا الخجل من نوع آخر، كإنه لا يريد تلك اللحظة، وأنا أيضًا، أريد عودة الزمن وعدم معرفتي بكل هذا، أحيانًا يكن من الأفضل ألا نعرف الحقيقة، تقطع أمي صمتنا لتخبر قلبي إن ما حدث كان أهون مما سوف أعرفه الآن:

- يا راجل انتَ لسه زي ما انت! مابتتعلمش! مابتستوعبش إن عندنا عيال بنضحي بعمرنا عشانهم، وانت بتعمل إيه؟ ماسك في الماضي ومستقلع! عمرك ما هتتغير يا كامل

إن كلام أمي ينزل على رأسي كالصاعقة، من الواضح وجود علاقة سابقة تربطها بدكتور (كامل) أنظر بصدمة إلى أمي، ثم (أصيل) وأوجه لهما كلامي بصوت يخبيء بداخله بكاء:

- إيه يا ماما الكلام ده.. إيه يا أصيل انت فاهم حاجة ومخبي عني دي كمان؟ ليأتي ويجلس بجانبي وينظر في عيني:
- أنا ماعرفش أي حاجة من دي، ماخبتش عنك حاجة، لو على بابا فأنا ماكنتش حابب أجيب سيرته.

فيرفع والده رأسه في وجهه، ويدور بينهما حديث شائك، يحكي دكتور (كامل) أو والد (أصيل) فيه قصته مع أمي، كم كان يحبها منذ الصغر، ورفضها له المتكرر له ولد بداخله الضغينة والغل، فكبر معه، وكبرنا نحن، ليحب ينتقم من أمي، فينتقم منها في ابنتها، يعمل على فشلي الدراسي، ويحاول تهديدي مرارًا وتكرارًا لو رفضت الزواج منه، يتجه إليَّ الدكتور، متأسفًا وكإنه للمرة الأولى يراني موضع ابنته، لم يكن لها ذنب بكل هذا الذي فعله من أجل تحطيمي، بعدما وجدني أبكي بانهيار، وأنا أيضًا؛ للمرة الأولى أشاهد بداخله أب كان في غفلة كبيرة عن ابنه وعن حياته، فقد حياته في محاولته للتحويل إلى صبي، رجل جعل ابنه يكره سيرته، تلك هي الحالة الأصعب الذي يصل إليها الابن أمام الأب الغافل، غير الواعي بشيء من مسؤولياته، ينظر إلى نفسه فقط لا غير، ويترك ابنه يتعرف على الحياة بدونه، من المؤكد أن يصل في يوم إلى اللحظة التي لا يحب أن يسمع اسم والده.

بصوت تملأه رائحة التبغ، يطلب (كامل) خروجهما والجلوس معي وحدنا، فتنظر أمي باستنكار، ويرد (أصيل) عليه منزعجًا:

- انتَ بتقول إيه؟ أسيب لك واحدة أنا جاي أصلًا عشان أنقذها من إيدك؟ وأمشي! انت هتهزر يا راجل انت
- ولد!! كلم أبوك باحترام

- أبويا مين يا حاج؟ والنبي بلاش تفتكر إنك أبويا في مواقف ومواقف لأ، ماتلبطش مني إني أفتكر إنك أبويا، وانت ناسي إني ابنك طول عمري

يجلس دكتور (كامل) على الكرسي مرةً أخرى، ويوجه كلامه لأمي:

- انتِ عارفة يا أصيلة، عيالنا عرفوني حجم اللي كنت فيه

فيقحم (أصيل) نفسه في الحديث، متعجبًا:

- بابا، انت مسميني أصيل قدام الناس عشان كده؟
- أيوه، أمك هي اللي كانت عاوزة تسميك فارس، وضغطت عليا، سميتك فارس بس حبي لأصيلة خلاني مصمم ع الاسم، كنت ناوي لو بقى ليك أخت هسميها أصيلة بس ربنا ما أرادش

ينظر (أصيل) إليَّ، فأتساءل متعجبة وبشعور تائه:

- فارس مين؟ ينظر إلى الأرض أمامي:
- أنا فارس

تحاول أمي من تهوين الكلام بعدما اشتدت أعصابنا جميعًا، وكعادتها؛ كالزهرة الجميلة الهادئة، التي تطيب كل جرح، وتشتت كل حزن:

- خلاص يا جميلة يللا نقوم نمشي ينتبه (أصيل) لكلمتها، ليقف أمامي ويبتسم:
- واحدة بواحدة يا جميلة!

أمي وأنا.. يوجد شيء مختلف تلك المرة، كعادة بيتنا بدون حارس، طالما أخبروني جدي وجدتي في طفولتي أن كل شيء في الحياة له حارس، وبرغم عدم وجود الحارس إلا أنني كنت أطمئن بشدة، وكأن جدي وجدتي كانوا يحتضنون المنزل. أسير على الدرج بهدوء وسكينة.

الآن يوجد الحارس في هذا المنزل، لكني لست مطمئنة، خائفة، أشعر بشيء غريب ينقبض له قلبي قلقًا. بيت الجد والجدة له طابع آخر، بالأخص في وجودهما، بعد ذلك وحينما يتركونا، تظهر ملامح الحزن على الأجهزة، تبكي ندبات الجدران، وتظهر برودتها. تتلاشى البركة، وكإنهما ساحران؛ يضفوا الحنان على كل ما هو حولهم. إنهم المعجزة التي تحدث للأحفاد، نعيش على أمل لقائهم مرةً أخرى، وبداخلنا يعلم جزم الأمور، لكننا نحاول تكذيبها.. مثلي الآن، أحاول تكذيب ما سمعت ورأيت اليوم، لا أصدق ما حدث، أتذكر في طفولتي حين كانت لعبتي المفضلة تنظيم حديقة الحيوان، أو تركيب المكعبات الملونة والطين الصلصال، شخص ما يأتي ليهدم كل شيء بدفعة بسيطة، شابهت ذلك الموقف بما حدث، لكني تراجعت، لا أفهم نفسي، كيف لي ألا أشعر بالحزن الشديد لأن (أصيل) كذب عليَّ هكذا؟ هو لم يكذب، هو فقط لم يكن يريد أن يتحدث في شيء كان يومًا أحد أسباب خسارته في الحياة. وعليَّ أن أقدر ذلك، أنا أيضًا لم أخبره باسمي! إنها لصدفة عجيبة، هل لذلك وضعت له كل الأعذار؟ لإنني في نفس الموقف، هل لو كنت أخبرته باسمي الذي لم ينادني به جدي، كنت سأغير وجهة نظري ورد فعلي، أم سأظل مثلما أنا؟

تذهب أمي متوجهة إلى المطبخ، وكالعادة أسير ورائها:

- ماقولتيليش ليه على دكتور كامل قبل كده؟
- عمري ما كنت أعرف إنه دكتور عندك في الكلية، كل اللي أعرفه عنه إنه كان في فنون جميلة في شبابنا، طلب مني الجواز ورفضت لإنه ماكانش كويس الله يسهل له
- انتِ عارفة إنه كل ده بيهددني مقابل إني أتجوزه؟ ليه كان بيعمل كده! ده هد التمثال بتاعي بعد ما كنت خلصت خطوات كتير فيه

أمي بذهول:

- امتى الكلام ده!! وازاي ماتقوليليش! انتِ بتخبي عليَّ يا جميلة!
- لأ عمري ما أخبي عليكي، أنا عارفة كويس إني لو كنت حكيتلِك كان ممكن يحصل معاه مشكلة
- فتقومي تخبي عليَّ!!

إن تلك الطريقة تخجلني، تجعلني أشعر بالرغبة في البكاء بين ذراعيها، وبالفعل أرتمي بين يديها وأبكي، تضمني بشدة وتربت على يدي:

- اهدي يا حبيبتي، أنا خايفة عليكِ، وإحنا مش بس أم وبنتها، إحنا أصحاب، أقرب اتنين لبعض، مش عاوزاكِ تخبي حاجة عني تاني، شوفي لما خبيتي حصل إيه!

أحتضنها:

- أنا آسفة ماتزعليش مني

- ماتتأسفيليش يا حبيبتي، يا روح قلب ماما، بس ماقولتيليش بقى.. إيه الحكاية؟
- حكاية إيه؟

تبتسم إبتسامة ترشدني فيها أعينها بوجود حديث غامض، فأعيد:

- قولي لي حكاية إيه يا ماما!
- فـارس يا حبيبة ماما

اليوم التالي..

أمد يدي نحو المنبه، فأجده انقلب ِرمال، كلما أنظر إلى شيء يتحول إلى رِمال، حتى الشخص الذي يأتي بمنامي، يقف على باب الغرفة فوق الرمال، كل شيء من حوله يتحول، ثم هو! انقلب إلى شاطيء بحر يخرج منه الموسيقى، بعد ذلك وجدته يقف بعيدًا جدًا، كل تلك المسافة أصبحت بيننا، سأقاوم وأنهض رغم شعوري بالعجز الشديد، وأحاول السباحة رغم ضآلة خبرتي بها، إن من يواجه الغرق أشرف من المستسلم بحجة الخوف، بالأخص حينما يريد الوصول.

اقتربت منه لأحدد ملامحه، فتلاشى. ما الذي يمسك بساقي الآن، بالفعل أشك إنه مخلوق بحري ولكن من خوفي الآن لا أركز، إنني أغرق! ثم استيقظت وقلبي ينتفض.

أفزعني استيقاظي المفاجئ، ارتعب قلبي، يا له من حلم فظيع! أحمد الله إنه مجرد حلم، أشعر باهتزاز سريري من شدة دقات قلبي، حلم غريب للغاية؛ هو نفسه المتكرر ولكن بشكل آخر..

أمسك بالهاتف كي أطمئن على فارس.. لم يرد أحد، مرة تلو الأخرى في ثواني وانغلق الهاتف! أين ذهب؟

أكذب نفسي أن الحلم لديه تدخل في ذلك الأمر، شعور انتشال الأمان يحتلني وأحاول تكذيبه، ألبس ملابسي دون تركيز، لم أذهب إلى الحمام، أتجاهل الأسانسير وأجري على منزل البيت، لألحق به، حين وصولي إلى منزله، أجد القفل موضوع على بابه. أجد حارسًا يقف أمام المدخل، فأتجه له مرتجفة:

- لو سمحت، كان فيه واحد هنا ساكن اسمه فارس..

وجدت استعجاب على وجهه، فترددت:

- آسفة، اسمه أصيل، ماتعرفش راح فين!
- سافر هو والمدام للحاج كامل الله يرحمه
- إيه! المدام مين!!
- مدام الدكتور فارس

إن كلماته تنزل كالصاعقة، أشعر وكإن قلبي تجمد، وعيني فقدت البصر، وجسدي فقد الشعور..

يرن هاتفي برقم غريب، من المؤكد أنه (أصيل)، أرد بقلق وحماس مدفون بداخله خوف ورعب وحزن وتعلق بأشياء لا أعرف ماهيتها.. ليفاجئني الصوت:

- حليم!

***

(جميلة)

الاسكندرية، بيت (أصيل) ينادي عليَّ بصوت هادئ:

- تعالي عاوز أتكلم معاكي

أترك ما بيدي، وأذهب لأجلس أمامه:

- اتكلم، أنا سامعاك

ينظر إليَّ (فارس) بامتنان:

- أنا بحترمك أوي، عارف إنك قد إيه طول الفترة دي كنتِ عاوزة تعرفي أنا إيه السبب اللي عمل فيا كده، وماحاولتيش تضغطي عليا
- أنا بس كل اللي كان هاممني إنك تبقى كويس
- انتِ مافيش زيك، مش عاوزة تعرفي السبب؟

تتسارع نبضات قلبي لتسبق كلماتي:

- اللي انت تحبه.. بص بصراحة، عاوزة أعرف
- حليم صدمني برده

حليم؟ فإني كنت أريد طوال المدة تكذيب تلك الفكرة التي تدور ببالي، أن (حليم) هو السبب، هو حاول تحطيم (أصيل) وتحطيمي معه:

- حليـم!! ازاي؟ عمل فيك إيه؟

- يوم مشكلة بابا، بعد ما قفلنا مع بعض ونمتي، وصلني خبر إنه توفى، حليم هو اللي كلمني وقال لي، لإن أم حليم تبقى مرات بابا الله يرحمه، كنت وقتها في الاسطبل بتدرب عشان المسابقة، وأنا بقفل التليفون لقيت حليم داخل عليا ...

« يدخل (حليم) الاسطبل، يقف أمام (أصيل) وينظر إلى عينيه بكل حدة، ثم يضع يده على كتف الآخر، وبنبرة تهديد:

- عارف لو قربت لچوانا؟ ورحمة أبوك ما هتمشي على رجلك تاني، ورحمة أبوك لأعميك!

ينفعل (أصيل) لنبرة تهديده له، ويطيح بيده من على كتفه، تحمر عيناه وتتسارع دقات قلبه، فإن الأمر حين يصل إلى هذا الحد؛ ذكره لـ (چوانا) وتهديده بذلك الشكل، يجعله ينفعل، ثم يحاول سريعًا التحكم بنفسه:

- بص يا حليـم، أنا هعتبر نفسي ماسمعتش التخريف ده، چوانا اسمها مايجيش على لسانك، وشغل التهديد ده تروح تعمله على حد غيري، زيك كده، يلا يا شاطر من هنا»

تبدأ عين (أصيل) في الدموع أمامي، وأبكي معه أنا أيضًا وهو يحكي، كأن تصعب عليه نفسه، يتذكر ويبكي قلبي مع تذكره:

- أصيل.. اهدى يا حبيبي أمسك برأسه، أضعها فوق قلبي

وأربت على يده:

- لو مش قادر تحكي بلاش
- بعدها وأنا هموت من القلق، خرجت وقفلت الاسطبل، بطلع بالاسكوتر لقيته بيطاردني بالعربية، وبدون مقدمات، خبطني بيها ماحستش بنفسي وقتها.. بعدها بكام يوم في المستشفى (إبراهيم) صاحبي اللي بحكي لك عنه على طول كان معايا، هو اللي وقف جنبي الفترة اللي اختفيت عنك فيها..

أقاطعه في الكلام بانهيار:

- حرام عليك والله.. ازاي كل ده يحصل وماتكلمنيش! كل ده يحصل لك من غيري! وأنا قاعدة فاكرة إنك بعدت عني بسبب الموقف اللي حصل من باباك، من يومها اختفيت وماعرفتش ألاقيك غير بصدفة جابتني هنا!
- لأ مش صدفة
- إيه!! ازاي!
- اصبري هحكي لك، حليم جالي المستشفى، وهددني، إني لو قربت لك هيموتك، أنا طبعًا ماسكتش، بس كنت عاجز، لو كان قرب لك ماكنتش هعرف أحميكي وقتها، بعدت فعلًا، وأنا حاطط عيني عليكي، عاوز أوصل لك وكل الحبال مقطوعة، كل الظروف مانعاني، وصيت إبراهيم عليكي، قلت له انت عيني وضهري، ماتغفلش عنها ثانية.. فضلتِ قدام عيني لحد ما جيتي هنا، عرفت إن (حليم) كلمك أول ما عمل فيا كده، وسكت واختفى، هو اختفى بسببي، وابراهيم ربنا يكرمه، هدده تهديد كبير، كإنه حد من أهلك، ضحكنا عليه يعني!

استمع إلى كلامه بصدمة، أنا حزينة من كل شيء، أو سعيدة الآن، أشعر بتضارب شديد، أريد أن أنهمر في البكاء ولا أكف عنه حتى يستريح قلبي، يجذبني إلى قلبه ويحتضني بشدة وأرى دموعه تنهال على وجهه وهو مبتسم:

- انتِ فضلتي جنبي وأنا متحطم، متكسر، استحملتيني وقبلتي حياتي الصعبة، استحملتي الجحيم اللي أنا فيه، مش هقول اتحملتيه بس، لأ.. انتِ حولتي حياتي لجنة، خليتيني أحمد ربنا على اللي حصل لي، عرفتيني إن الإبتلاء نعمة، ومخبي لنا معاه حاجات جميلة، جميلة جدًّا، جميلة جمال مش طبيعي والله! مش هدوق من جمالها ولا إيه؟

يجعلني أبتسم ويسعد قلبي حتى في أكثر الأوقات شِدة:

- أنا فرحانة إنك هتبقى كويس، ربنا يقومك بالسلامة يا رب

يضع شعري المائل على عيني وراء أذني بيده الجميلة التي أحب تفاصيلها بشدة:

- الله يسلمك يا أجمل حاجة حصلت لي في حياتي

***

في المستشفى

أتشمم رائحة المطهرات التي أكرهها، يقلق قلبي من أجل شيئين؛ عملية (أصيل) التي تقترب من ساعتها، وأمي التي لم ترد على هاتفي، هي تعلم جيدًا كم أقلق بشأنها، بالأخص منذ أن سافرت إيطاليا، فنتحدث يوميًّا بالساعات الطويلة، أنا أتشتت حين يحدث مثل هذا، غياب أمي وحده يعتبر غربة، فإنني منذ يوم أن سافرت وأنا أنهض من سريري صباحًا، أتحمل المسؤولية، تعرفت على أكياس الخضروات الثقيلة، مشاوير من أجل البيت، إفطار، غداء، عشاء، تنظيف بيت، ترتيب الغرفة وكل شيء،

غسيل الأطباق والصحون، مع محاولة الاهتمام بذاتي، في نصف غرقي داخل تحمل المسؤولية كاملةً، لم يمتلئ فراغي هذا ويومي الروتيني بحت، إلا حين عدت إلى (أصيل) وملأ يومي. صوت الممرضة يفاجئ سكوتي، وضوضاء رأسي بعد سهد اليوم، أتذكر إنني أتركه يجلس وحيدًا من شدة قلقي على أمي التي جعلتني أنسى كل شيء حولي، لكن تلك المواقف تتطلب مني قوة زائدة عن الحد، أؤمن بهذه الآية «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها» فيهدأ قلبي، وأعلم إن مهما كبر حجم المهمة، فإن بوسعي احتواءها والسيطرة عليها.

أجلس بجانب (أصيل) بلا مقدمات، هو بلبس العمليات، أمسك يده، وأميل برأسي على كتفه، حتى يستقيم بي العالم كله. هو؛ حتى في أكثر أوقاته ضعفًا، يجعلني أقوى، أحاول تقويته:

- كلها ساعات وتطلع وتشوف الدنيا تاني
- ماتتخيليش إني معتبر نفسي شايف الدنيا يوم ما رجعتي لي، لو نجحت العملية هشوفك، ده اللي مخليني عاوز أجري ورا الساعة عشان الوقت يعدي
- هيعدي وهتطلع بألف سلامة

تنهي الممرضة حوارنا حين تتدخل بكلمات طيبة: «هيقوم ِلك بالسلامة ويرجع يشوف بعيونه الحلوة دول»

- بتعاكسني قدامِك

نضحك لبعضنا البعض، ثم تكمل هي الحديث بالطلب منه أن يخرج معها من الغرفة ليستعد إلى غرفة العمليات، نتبادل السلامات، حتى اللقاء المنتظر لكلانا.

(أصيل) داخل غرفة العمليات، وأنا أنتظره بالخارج، شعور الإنتظار سيء بشدة، بالأخص عند انتظار إنهاء عملية طبية، نتيجة تحاليل، الإنتظار يحمل أشياء كثيرة بداخله، لحظاته التي أمر بها تساعدني على التأمل أحيانًا، وأحيانًا أخرى تشتت قلبي وعقلي وترفض أن تجعل فكرة واحدة تتسلل إلى مخي، بل تجتمع حزمة أفكار منها السيء ومنها الحسن، تتشكل دقات قلبي في صوت عقارب الساعة الذي يؤرقني، أحاول تهدئة صراع الأفكار وأصواتها المزعجة داخل رأسي ولا أقوى على ذلك، وكأن كل ما بداخلي يعاندني، أشعر حينها أنني لا أقوى حتى على نفسي، ويباغتني عن بعد الشعور بالعجز، فإنني عجزت عن التحكم في كل

شيء حولي، حتى نفسي، عجزت عن التحكم بها. مرور وقت الإنتظار مضاد تمامًا لسرعة مرور الوقت مع من نحب، حين نجلس ولو لمئة عام، نشعر باختزال الأعوام في دقائق معدودة. أنظر في الساعة لأجد أن ربع ساعة مرت فقط على العملية، إنني استشيط قلقًا، أفكر فيما بعدها، هل سيرى أم يظل مثلما كان؟ هل سأنظر له وأنا أعلم أنه يراني، سنعود مرةً أخرى؛ يجعلني أخجل من نظرته الجميلة؟ لحظات تمر على روحي، كلما تابعتها وانتبهت لها كبرت، وطال وقتها. أزيد من استغفاري، وأقرأ سورة (يس) حتى يهدأ عقلي ويطمئن قلبي، ويمر الوقت لأجد الدكتور خارج من غرفة العمليات، فأفر مسرعة إليه وأنا أهاب أن يخبرني بالنتيجة التي أرجو من الله أن تكون إيجابية.. يقترب هو الآخر مني ليخبرني وهو ينهج بعض الشيء:

- اطمني هو كويس
- العملية نجحت؟
- لسه هنعرف لما يفوق من البنج، ماتقلقيش

يتركني ويرحل، أقف على باب الغرفة وأنا قلقة، أغرق في قلقي حتى أشعر بإختناق البكاء داخل صدري، أنا متعبة وأريد رؤية سعادة (أصيل) حين يرى، لا أتخيل ماذا يمكنني أن أفعل إذا فشلت تلك العملية؟ من المؤكد إن دعمي له دائمًا موجود، لكن هو؛ هو يتمنى أن يرى، يشاهد العالم، يعود إلى الفروسية، يصبح أنجح طبيب أسنان، يحقق جميع أحلامه، ويراها أمامه.

جلست وحدي، يحاول اليأس اقتحامي لكني أرد بابه، أغلقه تمامًا، أو أحاول فعل هذا، لا يعلم الإنتظار ما يخبيء في حياتنا، فإنه ليس مجرد

وقتًا ضائعًا وساعات تمر، لكنه مليء بالخبايا والتوقعات وانهباط وانخفاض طموح، وارتفاع إلى قمة الشغف والأمل، مع الألم، والهوس والاحتمالات.

- وقال نجيب محفوظ: «الإنتظار محنة، في الإنتظار تتمزق أعضاء الأنفس، في الإنتظار يموت الزمن وهو يعي موته.. والمستقبل يرتكز على مقدمات واضحة ولكنه يحمل نهايات متناقضة.. فليعب كل ملهوف من قدح القلق ما شاء.»

صدأ أرواحنا، واعتصار قلوبنا، في الإنتظار، كما يكون فيه أيضًا أكثر ما هو جميل؛ وهو الصبر، الذي أطمئن أن آخره سيكون جبر وليس خذي وقهر.

لتخرج الممرضة بعد ٤٥ دقيقة، لتنادي الطبيب، فيشير إليَّ كي أدخل إلى (أصيل) لأجده يجلس وعلى عينيه قطن، كلمات الطبيب تجعل نبضات قلبي في ازدياد، من المؤكد أن نبضات قلب (أصيل) تتصارع أيضًا، لكن الابتسامة لا تغادر وجهه.. تتفوه الكلمات من الطبيب: «هنشيل اللي على عينك دلوقتي، انت عارف ومؤمن بقدر ربنا، اللي مقدره لينا هو أكيد الخير، عاوزك تكون راجل ومتماسك مهما كانت النتيجة، يللا بسم الله..» ليرفع الغطاء عن عينه، أجد (أصيل) يفتح عينه ببطء، أشعر وكإنني استمع لنبضاتنا بأعلى صوت ممكن، أسير أمامه كي أعلم هو ينظر إليَّ بالفعل أم لا يراني؟ لأجده يستدير مع حركتي ويبتسم، ثم يجهش في البكاء، وأجهش ببكائي معه، أجري عليه بلا تردد وأحتضنه بكل قواي، لا نصدق، نحمد الله كل الحمد على كثير فضله، أنا لا أصدق، تلك اللحظة التي لطالما رجوناها، وأول ما نفعله هو الصلاة

وسجود الشكر إلى الله. أنا لا أصدق، حقًّا أرغب في احتضان العالم بأكمله.

نصل إلى البيت ومعنا (إبراهيم) وكل شيء يصبح مستقرًّا؛ (أصيل) يجلي نائمًا مطمئنًّا مستريحًا، أؤكد على صديقه ألا يتركه لإني قررت أن أقلب الدنيا رأسًا على عقب لأجد أمي، أتصل بأمي ولم ترد، إن الأمر لم يكن بتلك البساطة، ليس من عاداتنا أن نغيب عن بعضنا البعض كل تلك الساعات، يكاد عقلي أن ينفجر، فإن التوتر والقلق يملآن الكون حولي. لا ينفجر عقلي، بل يذوب ويختفي تمامًا حين ردت على هاتف أمي (سانتينو) ابن طنط (روزيللا) صديقة أمي الإيطالية الرقيقة، ليفاجئني بما كان يخيفني حدوثه طوال حياتي.

المطار.. ثم إلى الطائرة.

في الطائرة، أتابع ضيق العالم وصغره من الأعلى، بالفعل إن العالم صغير لأقصى درجة، لا يساع جميع أنفاسنا، على قدر كبره الذي يسعنا جميعًا، اكتشفت إن وسع العالم ليس بالمساحات والمسافات، وإنما بالقلوب وشعورها، فأحيانًا يكن بوسعي احتضان العالم بأكمله كالسحب السعيدة، وأحيانًا أخرى لا أحتمل حتى احتضان نفسي.

صديقتي أمي..

ابنتك كبرت، الآن أستطيع أن أسير على قدمي لأعبر الشوارع، أركب الطائرة وحدي وأعبر البلاد، استيقظ في الصباح بدون منبه، يصبح على عاتقي مسؤولية الطبخ؛ إفطار، أجهز الجبن والبيض والبسطرمة، كوب اللبن، والزيتون، طبق الفاكهة، ثم الشاي بالنعناع، لا آسفة أنا بدونك أصبحت كسولة لأبعد مدى، أو اكتشفت كسلي الذي لطالما كان موجودًا ولم أشعر بثقله إلا بعدما شاهدت المنزل يومًا بدونك، فرميت كل ذلك الإفطار في الهواء ولم أفطر، لكن حين أتذكر خوفك عليَّ، أذهب للإفطار من أجلك، من أجل صحتي التي استأمنتني عليها قبل سفرك إلى إيطاليا، إن مسؤولية الأم تتطلب شجاعة وقوة، وانتِ أقوى من رأت عيني، لم يفهمني شخص قدر فهمك لي من نظرة، انتِ ملجأي، مهما مر علينا الوقت والأشخاص، تظلين انتِ المأوى، بيتنا مظلم بعد غيابك، كثيرًا ما كنتِ تحدثيني عن وطنك الآخر؛ إيطاليا، وكنت أتشوق إلى زيارتها، لكن بداخلي غيرة منها منذ أن سافرتي إلى هناك، والآن أنا ذاهبة إليكِ وإليها، سأظل بجانبك ونعود سوياً، أشتاق إلى رائحة طهي طعامك، خبزك، قهوتك والشاي بالنعناع، النوم بجانبك، احتوائك لي.

أصل إلى مطار إيطاليا، ليستقبلني (سانتينو) ويطمئنني على حالة أمي الصحية بعدما تعرضت إلى وعكة صحية كبيرة وكانت تبخل على قلبي بإخباري عن وعكتها، حمدًا كثيرًا على سلامة صحتها، إني متحمسة الآن لمقابلتها بعد شهور من الغياب، أخرج هاتفي قبل كل شيء وأهاتف (أصيل) عبر الانترنت لعدم حصولي على خط إيطالي:

- حمد الله ع السلامة، طمنيني على طنط عاملة إيه؟

- الحمد لله سانتينو طمني عليها وهو معايا أهه ورايحين لها، انت طمني عليك!

يصمت للحظات ثم يتعجب:

- سانتينو ده الكلب بتاعك يا حبيبتي!

يضحكني:

- بس يابني ده ابن صاحبة ماما، إيطالي
- ومعاكي بيعمل إيه بقى؟ أنا ماعنديش بنات تمشي مع كلاب
- ماتهزرش، ماتقلقش انت وراك رجالة، انت لو شفته هتحبه خالص
- لا والله؟ عرفتي منين إني هحبه!
- بص ماما بتكلمني دلوقتي هقفل وأكلمك تاني
- بقول لك إيه ماتهربيش، ٥ دقايق وكلميني
- حاضر

أغلق الهاتف وأرد سريعًا على أمي:

- وحشتيني!! عاوزة تخبي عليَّ وماترديش! عاوزة تموتيني يا ماما!
- بعد الشر عليكي يا حبيبتي، أنا ماكنتش عارفة أتكلم من التعب، ووصيت روزيللا تكلمك تطمنك
- طب انتِ كويسة دلوقتي؟
- اه يا حبيبتي اتطمني، أنا مستنياكي تعالوا بسرعة

بعد انتظار بفارغ الصبر، تمر الشوارع، وأنا أشاهد العمارة الإيطالية الجميلة، وحان الوقت الآن وأنا أحاول سبق خطواتي حتى أصل إلى منزل طنط (روزيللا) وأمي بداخله، أمام الباب، وحاليًا ينفتح الباب وتستقبلني تلك الصديقة الجميلة بالأحضان والعناق ورقة الترحيب، ترشدني لغرفة أمي، فتسبقني هي وتخرج من الغرفة لأجري وتتلألأ دموع عيني بيني ذراعي أمي، يخفق قلبي ويزداد نبضه من فرحة اللقاء بعد شدة الشوق، ذلك العناق الذي رد إلى روحي السعادة، وعالج قلبي من الهموم، أسدل من على عاتقي ستار حريري لتنزلق همومي من فوقه دون أن تجرحني، ما أجمل ذلك الشعور الذي ينتابنا عن لقاء أحبتنا، لا مثيل له.

***

بحر وشاطيء . .

مللت التصنع الذي تشاهده عيني يوميًّا، ولا يشعر به قلبي. أصبحت الوجوه مكررة وباهتة، لا تستطيع الجزم بأن هؤلاء سعداء أم تعساء، تلك الضحكة حقيقية؟ أم من أجل التقاط صورة. يأتي عليك لحظة تسير فيها بين المارة وبداخلك يرجو ألا تقابل في طريقك من يقف ويتحدث، تشعر أثناء الحديث بثقل الكلمة، يتعطل صوتك، كل ما بِك، ما عدا هزَّة رأسك التي تنقذك من منعطفات كثيرة تاهت بين الأصوات.

نغرق في عالم آخر، يمزق أرواحنا، ولكننا جميعًا حقنا بمخدر أمام الزمن. حتى أغمض عيني.

لأجلس على الشاطئ، بملابسي البيضاء، تزينها بعض الخطوط اللبنية والذهبية، فستان مصري، تتلاطم الأمواج بشدة، تأتي إليَّ ثم تعود حيث أتت، تعلو أنفاسي لا أعلم كيف أسمع صوتها، إنها تهزني من الداخل، وكأن بداخلي زلزال، على رأسي قبعة الشاطئ المكسيكية، تتلون بلون الرِمال، لتأتي الرياح فتطيح بها، حتى أجدها أمام أقدامه، إنه هو!

تحبس الرياح صوتي، ولكني أحاول:

- أصيـل! انت سايبني ليه كل ده! حرام عليك أنا هموت من القلق عليك

لم يرد (أصيل) وأنا في استمرار وإصرار على كلماتي له، وهو لم يرد نهائيًّا، فقط ابتسم، وجذبني إلى صدره.. فيفزعني صوت الهاتف، يوقظني

ونبضات قلبي تهبط وتعلو في صراع، أنفاسي أيضًا وصلت إلى السماء، لأنظر بجانبي، فأجد أمي بصحة جيدة اليوم، وكل شيء على ما يرام كي نعود إلى مصر. في الحقيقة أن ليس كل شيء على ما يرام، إنه ليس هنا، لا يوجد بجانبي، إنني محطمة بشدة لا يشعر بها أحد.

عودتنا إلى البيت وأمي بصحة جيدة، هذا ما كنت أريده، نامت في سريرها، واحتضنتها بشدة ثم وضعت حقائبنا داخل غرفتي، وذهبت لأقابل (أصيل) بعد غياب شهر، لقائنا به كان عبر الهاتف فقط. حين أصل إلى بيته وأفتح الباب، أنادي عليه ولم أجد الرد، غرفته فارغة، الحمام فارغ، الصالة والغرف الأخرى، أخرى إلى الحديقة بقلق شديد، أنادي بهيستريا، لم يرد، أنهار، أين ذهب وتركني مرة أخرى! أجد ظرفًا من المؤكد إنه جواب تركه لي، أفتحه لأقرأ ما به..

"ممكن أرجع بدري وممكن لأ، اتأكدي إني دايمًا حواليكي وبحميكي، لو ده آخر كلام تشوفيه مني هيبقى كده أحسن إنك ماعرفتيش اللي حصل، ولو فيه بيننا كلام تاني أكيد هحكي لك، هتكون أول حاجة أقولها لك. الموضوع كله إني ماحبتش أبان ضعيف قدامك. فاهم إن الضعف قدامك قوة، أنا عمري ما سمحت لنفسي أنهار غير وانتِ معايا، عرفتي تجمعيني بعد ما كنت متكسر، عشان كده حقك إني يوم ما أرجع لك أكون قوي، عاوزك تعرفي إنك أجمل قلب، أكتر عقل مبهر، وأحلى بنت شافتها عيني، وحبها قلبي."

عندما تجتمع الحسرة والرتابة مع الحزن، نصل لمرحلة لامبالاة ظاهرة وضوضاء محتبسة تكاد تفجر رؤوسنا، وتخرج قلوبنا من أجسادنا

بسرعة نبضاته، تتبع تلك الحالة أشياء لم أجد لها وصف الآن لعدم قدرتي، أو عجزي المؤقت.

تهيبنا فكرة أن كل تلك الأشياء ستصبح مهمشة يومًا ما.

بعد مرور شهرين

من الواضح أن التخطي ليس سهلًا على كل البشر مثلما كنت أتوقع. فإن عسره حين يأتي، يأتي بشدته.

" شهرين يا بخيل؟ ستين شمس وستين ليل"

أسرح في كلمات (الأبنودي) التي تُخاطب بها (فاطنة) زوجها البعيد، إنها حقًّا من أعذب ما سمعت عن الشوق، تصف شعوري الآن حين ابتعد عني (أصيل) للمرة الثانية، إن هذا (أصيل) وليس (فارس)، أصيل الذي ابتعد عني للمرة الأولى وعاد وهو فارسًا على كرسيه الذي قاد قلبي إلى النور، ذهب وأخذ معه كل مفاتيح شمس حياتي. اشتقت له بشدة، وللمرة الثانية لا أعلم أين ذهب، كيف تركني هكذا؟ كيف مر عليه كل لحظة، كل يوم، في هاتين الشهرين!

أريد بعض الهدنة. لا أريدها، بل أحتاجها بشدة. الحقيقة أني لا أعلم أحتاج هُدنة من ماذا، لكن رأسي مشوشة بأفكار كثيرة، لا أحدد ماهيتها من شدة ضوضائها. يجب أن يحدث شيئ ما.

إن جميع الطاقة بداخلنا قد نفذت، لا يوجد طاقة لأي شيء، كل ما نحتاجه؛ هي عزلة، نبتعد عن كل شيء لتصفى أرواحنا، ونستعد للعودة الراقية إلى الحياة ببال هاديء، يرى كل ما ومن حوله ببصيرة أكثر إنارة.

أريد من أعماق قلبي، ألا أترك جزءً آخرًا من روحي في أشياء تكشف لي نهايتها أنها سراب. فإنني لم أعد أتحمل هذا الشعور الثقيل. يا رب لن يحدث ذلك أبدًا.

تائهون، لا نملك من أمرنا شيئًا، نفعل أشياءً نعلم أنها الأكبر ضررًا لأرواحنا وقلوبنا، لا يساعدنا أحد على التراجع، كلانا يسير في الاتجاه المضاد لِذاته الحقيقية، لكنه يسير، تلك هي الحياة التي نفرضها على أنفسنا. كأن الأعين والأرواح وكل شيء يتحدث صامتًا، ينتظر مِن صاحبه التحرك.

يصعب على الروح أن تتخلَّى عما قد تناغم بها، حتى وإن كان الظاهر تخلَّى.

تنام أمي في الغرفة، أدخل لأطمئن عليها، ثم أخرج حقائبي أفتش فيهما، على أمل أن أجد أي شيء يتعلق به، وجدت بين أشيائي ساعة جدي، وجدت عيني تمتلئ بالدموع بدون تحكم مني، دموع لا إرادية، فإن شوقي إليه يفوق الحد، أريد أن أرتمي بداخله وأبكي، أشكي له من كل شيء في هذا العالم السيء مثلما كنت أفعل.

ساعة جدي القديمة تحمل ساعتي فوق عاتقيها، كما كان يحملني دائمًا.

لا أنسى أي ذكرى له، فكل الأشياء من حولي مرتبطة به، طفولتي بأكملها، أكبر لحظة تلو الأخرى وهو أمامي، أمامي وقدوتي.

في الحقيقة أنني لم أرى أطيب من ملامحه وطِباعه، روحًا طيبة لم أجد مثلها أبدًا. رأيت فيه تحمل المسؤولية بكل حب، وتأدية دور الأب بأجمل وجه يمكن رؤيته، والشعور به.

أيقنت معنى الأب الروحي لأنه جدي، كل ما في الأمر أنه لم ينجبني فقط! لكنه حمل كل صفات الأبوة، يمنحني الشعور بالأمان بمجرد وجوده في مكان ما. أحب أبي؛ جدي، أبي الحقيقي الذي غمرني بحبه، جعلني أفخر بأني حفيدة وابنة أعظم رجال الكون.

كُنا نجلس سويًّا بالشرفة صباح كل يوم، يحملني ويضعني على جدارها وهو مُمسك بي بشدة وبسمته الجميلة تُزين وجهه، تشعرني بالاطمئنان لدرجة أنى لم أتذكر الخوف قط حينها، نضع معًا الأرز كي تأتي الطيور وتأكل أمامنا.. حين أرغب في النوم يحملني برفق ورأسي على كتفه، ويسير بين جدران الغرفة، يتغنى بمقاطع من تأليفه مع ذكر اسمي بينها، إلى أن يأتي لعيني النوم.

سرير جدي كان الأمان، إلى الآن هو كذلك لكن ينقصه أغلى ما يمكن وصفه، جدي.

تؤلمني ذكراه على قدر جمالها، يؤلمني قلبي حين أتذكر مهاتفته هو وأجمل امرأة في الكون "جدتي" لنا لكي نأتي لهما، حين نغيب أقل من ساعة عنهما، ونحن أيضًا كنا كذلك، لا نتحمل البعد دقائق، الآن أصبح البعد رحيل من سنين، وتتألم قلوبنا بصمت تام، تدمع أعينا سرًّا، ونقصد

ألا نبكي أمام بعضنا البعض. شعور للا يمكن وصفه، الدمع والكلمات تحتبس في صدري، أختنق، لم أعلم لأي سبب هذا، لشدة الشوق؟ أم لشعوري الشديد بالعجز، أم لأنني مهما تحدثت لن أقدر على التعبير!

أشتاق لرائحتهما، لسماع أصواتهما تدفئ جدران البيت، العِناق الذي لم يأتِ مرة أخرى، كل الكلمات، اللحظات الغنية بوجودهما، ضحكاتهما، وكلامهما معاً، الحنان الذى يساع السماء والأرض.

جدو وأنَّة..

هل يمكنكما الرجوع لدقائق؟ أحاول تبسيط الأمر لكي يزيد الأمل، لكني أراه يبعد، ويأخذ قلبي معه، يا من تناغمت روحي بكما ثم رحلتم بها، بلا رجوع، أريد سماع اسمي بصوتكما مرة أخرى، مرة فقط، تلك النعمة الكبيرة، كانت نعمة كل يوم أن نصبح مع وجودكما في البيت، انتما البيت والسكن الذي قدر وبشدة احتوائنا جميعًا، قلبان تآلفا وتحابا ثم أنجبا أبناءً وأحفادًا يعشقوهما، والآن نحن نشتاق يا أجمل هدايا الله، رحمكُما الله وجمعنا بكما في أعلى الجنات.

اشتاقت إلى أيامكم؛ أيام برائحة الدفء الجميل.

بينما (أصيل)؛ من بذلت قلبي من أجله، بكل حب، وفي النهاية يختفي ويغيب عني تاركًا جوابًا لا يرشدني فيه إلى أين ذهب، هل عمل العملية؟ في أي بلد؟ حقًّا ينفطر قلبي من غيابه، إنه بخل على قلبي بشعور الطمأنينة، كتب عليَّ حيرة القلب إلى موعد لا أعلم سيأتي أم لا؟

أنظر بجانب سريري لأجد مفتاح شقته، ما الذي أتى به إلى هنا، اه صحيح! إني كان لدي نسخة مفاتيح لكل شيء! نهضت فجأة مسرعة إلى بيته، لأبحث عن أي شيء هناك يدلني على مكانه. مع كل خطوة تسرع وتسابق الأخرى، تزيد نبضات قلبي، وتشعل نيران الشوق بداخلي، إن بعده أنهكني، تعلمت في فترة غيابه إن الإرهاق الجسدي من كثرة العمل أرحم من النفسي، الذي يجعلني غير قادرة حتى على المشي وجسدي في كامل قوته، أصل إلى بيته، أتربة فوق الباب، إنني في طبيعتي أخاف بشدة، يرعبني فكرة أن أغمض عيني في مكان فارغ تمامًا من البشر، الأقربون، أفتح الباب، وأنا أفكر في علاقتنا الأمدية، يحزن قلبي وأنا جالسة بين أشياءه ولكن بدونه، أضع رأسي على مكتبه، وأبكي بشدة، أبكي حتى يعلو صوت بكائي، ويصبح بكاء بالفعل وليس أنين، ينذعر قلبي حين أسمع صوت أقدام بالداخل، من الواضح إن شخ ًصا يقترب إلى هنا، خطوة خطوة، وقلبي يكاد ينخلع من شدة الخوف، أريد أن أجري لكني أشعر وكأنني فقدت كل أعصابي، أصابني شلل مؤقت، أصرخ فجأة حين أستدير وأجد (حليم) أمامي. ثم لا أشعر بشيء. تبهت الدنيا أمامي وتصبح ضبابية، في طريقي إلى فقدان الوعي.

لا أشعر بنفسي إلا وأنا مستلقية على أريكته، وأمامي (حليم) ممسكًا بيدي، أشعر بألم في صدري وقلبي، أتفقد هل أنا أحلم؟ أهذا كابوس؟ فأسحب يدي فورًا:

- هو إيه اللي حصل؟ إيه جابك هنا؟!

يقترب إليَّ وبصوت خافت

- مشيت وراكي
- انتَ السبب في بعد أصيل عني؟
- احمرت عيناه، وجحظا اشتعالًا من كلماتي، وبصوت منفعل يطق شرارًا:
- انتِ بتقولي لي تاني أصيل! تاني! بعد ما رماكي وسابك وانتِ كنتِ عاملة لي فيها خدامة البيه!

لم تؤثر كلماته في شعوري اتجاه (أصيل) فإن كل ما بداخلي الآن قلق عليه، عليه وليس منه:

- انت عارف يا حليم.. هتفضل طول عمرك مقهور من أصيل، شايفه أعلى منك وأحسن منك، ومهما تعمل، لو جيت اترجيتني نرجع، مستحيل أبص في وشك تاني

بضحكات متعالية متصنعًا الثقة، وعيناه يملأهما التوتر والارتباك:

- ولو قلت لك إني قتلت أصيل؟

تلجمت جميع الحروف في فمي، لم أصدقه، أو أرفض تصديقه، أهاب الاعتراف بتلك الخدعة، الكذبة التي يريد حرق قلبي بها، وأنا صامدة بالخارج، أنهار داخليًّا، أريد الإفاقة من ذلك الكابوس الذي يحدث أمامي، بدون وعي انطلقت نحو (حليم) وصفعته على وجهه، صدمته جعلتني أهاب شكله الذي تحول إلى وحش، وبلا تردد، يبرح بي الضرب والتعدي، يدفعني بشدة حتى أجد نفسي مستلقية على الأرض، ولست

قادرة على مقاومة تعبي الآن، حين اقترب مني صرخت بشدة حتى يبتعد، أو يسمعني أحد فينقذني من بين يد ذلك الوغد. فأجد منقذي، البطل الذي أثبت لي أن الأبطال لم تكن في الأفلام فقط، أجده يسحب (حليم) بقوة من على الأرض ويبرح فيه الضرب..

إنه(أصيل) حقًّا؟ أم أنني في حلم سأستيقظ منه كما يحدث كل يوم وأنا في قمة اليأس، (أصيل) سيرًا على الأقدام! فأبسم، وتعود ابتساماتي لرهبة وخوف عليه، لم يترك (حليم) إلى وهو يتوسل إليه بتركه، عندما شعر إن أنفاسه تبتعد وتتشتت وتكاد الإنتهاء، أكتم صرخاتي بيدي، وأنا أشاهد الحديث الذي يدور بينهم.. (أصيل) بانفعال شديد:

- مش قلت لك في يوم هاخد حقي منك، بس وأنا أقوى؟ عرفت يا حليم ولا لسه؟
- انت حيوان.. بتقـ..
- اخرص خالص، مش عاوز أسمع كلمة منك، جميلة دي ماتقربلهاش، سيرتها ماتجيش في بالك حتى، مش على لسانك بس، انت مش عارف جزاء اللي عملته دلوقتي إيه! عشان تعرف تمد إيدك على حاجة مش بتاعتك

ودفع رأس (حليم) بحدة يده، فنظر إليه حليم بغل وخوف في آنٍ واحدٍ:

- انت مشيت على رجلك، تحب أكسرها لك تاني؟ أقطع نفسك من الدنيا عشان أرتاح

- تفتكر لو نفسي اتقطع هترتاح؟ مستحيل، لإن انت عيل تعبان، مافيش حاجة هتريحك حاولت تكسرني، حاولت تسرق مني الوحيدة اللي حبيتها..

صمت بينهما. ثم يوجه (أصيل) كلماته لي:

- اللي كنت مخبيه عليكي إني عارفك من زمان جدًّا، حليم ده كان صاحب عمري، كنت حاكي له أنا بحبك قد إيه، كان عارف إني خايف أحاول أوصل لك حبي، فأخسرك، سبقني وغدرني وراح فهمك إنه بيحبك، بعدها حاول يضحي بيا، اتسبب في شلل وعمى وتدمير لحياتي بشكل مؤقت، كان فاكره دايم.. ثم يستدير إلى (حليم) وأنا أجلس وأبكي..

ثم يكمل:

- على فكرة أنا بلغت عنك، رفعت عليك قضية إنك كنت السبب في أذيتي بالشكل ده، ودلوقتي انت متصور بتتهجم على بنت، لإن بيتي كله فيه كاميرات، الشر مابيدُمش يا حليم، لما قلت لك كده ماصدقتنيش، بس الشر مهما طوِّل.. والله ما بيدوم!

يتجه (حليم) إليَّ، ثم يبرر موقفه:

- ممكن أكون زعلتك.. غلطت في حقك غصب عني
- مافيش حد بيزعل حد غصب عنه، خلاص يا حليم الكلام ده فات أوانه من زمان أوي

أجد (حليم) يجلس مصدومًا على كرسي، وبضعة من الناس يدخلون البيت ليأخذوه، وأنا لا أفهم ما يحدث، فيجلس (أصيل) على ركبته أمام كرسي (حليم) :

- أنا مابلغتش عنك، انت هتتعالج نفسيًّا، علاج مكثف، وهتطلع سوي، هتطلع (حليم) اللي كنت عارفه أيام زمان، صاحب عمري، يا صاحبي أنا مابحبش الانتقام، وانت عارف كده كويس، يقتربا من بعضهما البعض، يتعانقا بشدة وينهمر (حليم) في البكاء، معترفًا بذنبه، وإنه لم يكن قادرًا على التحكم في عدوانيته وغيرته التي ليست لها مبرر، انتهى ذلك التعانق باعتذار (حليم) لنا، دخول طاقم الطب النفسي إلى البيت، وذهابه معهم إلى المصحة.

يفرغ البيت، لم يتبقى سوانا، يسود الصمت بيننا، كعادتنا، صمتنا ممتليء بالكلام، وللمرة الأولى أتخلى عن دور الرصينة، أصرخ في وجهه، وأنا مطمئنة، للمرة الأولى أعلم إن من أكبر لحظات الأمان أن يتركك الذي أمامك للانفجار في وجهه، وهو في الجانب الآخر.. يحتويك، يحتوي كل شعور بداخلك، يشكله، هذا الفيلسوف البسيط، صديق الفرسان، من يقنعني إن ملخص الحياة في كلمتين "بساطة - نضج"

من وجدت معه إن انعدام الجدوى ليس انعدامًا، لا يدفعني إلى عقلنة كل قبح، في نفس الوقت الذي يفعل فيه معي كل جديد، وليس أحمق، من أمد يدي له وأنا أثق إنها لن تنسحب مني، من تتحول كيمياء دمه إلى النسيم حين أمرر عيني في عينيه، من أحب نبرة صوته الخافتة، حين يصمت، حين يعلو، وحين كل شيء. نحن على وشك العبور، على وشك

البداية. اقتنعت طوال حياتي إن للفعل التقدير الوحيد، لكني معه، أحببت الكلمة، والقول الحسن الذي يخترق قلبي بحنان، دائمًا يعرقلني تحفظي الزائد في كل شيء، وهو يقدر ذلك، وأنا الآن أمامه، يدور ببالي ألف حديث وحديث، هل عيناه الآن هي الهاوية؟ وأنا أنظر إليها ممتلئة بأحلام الأطفال؟ أم إنني أمام حلمي الذي يتحقق الآن، كلانا لديه صمته الخاص، معًا، سويًّا، من منا عليه الاندفاع الآن؟ لأن على أحدنا أن يفعل، بعد رؤيتي لدموعه التي لم آرها من قبل، حتى في أشد المواقف، تنطلق مني كلمة «وبعد الصمت ده؟»

ليرد مسرعًا:

- إني بحبك.. بعده وقبله، ووقته، وكل لحظة عدت بيننا

بقلب عائد إلى الحياة:

- وأنا بحبك من يوم ما شفتك، عرفت إني عمري ما حبيت ولا هحب غيرك، انت خليتني أتأكد إن فيه حاجة اسمها حب من أول نظرة، وإن الإحساس الأول مابيكدبش

يقبل يدي وهو يبكي، وأبكي أنا أيضًا، عيني تملأها الدموع وأنظر له بحنان، سعيدة بكلماته، وأكثر شيء يسعدني الآن، إنه يقف أمامي، ولا يجلس:

- تعالَى نرقص بقى، المرة دي بشكل مختلف، زي أول مرة تحت المطر

يحتضني بشدة، ثم وبكل تناغم، نتراقص على نغمات ساحرة، في لحظة ساحرة، بألحان (البينوني) وصوت (ماجدة الرومي) تتغنى بكلمات (نزار فرانسيس)، أصيل وأنا بين يديه. (أصيل).

الليلي عيشني حبك.. الليلي سمعني قلبك

الليلي إنساني ع ايديك.. وشمسي تشرق من عينيك

عندي بتساوي هالكون

يا كل الكون .. حبيبي

شو معنى هالحياة؟ حلم ومارق ساعات

الباقي من عمري بهديك.. وعمري لحظه بتناديك

مبارح وباقي لليوم ولآخر يوم ..

حبيبي

أنا اللي منك انتَ مني.. لا لا ما تبعد عني

انتَ أنا.. روحي أنا

انتَ الاي ساكني.. انتَ اللي عارف إني.. إلك وحدك بغني

شو مشتاقه حبيبي

قول كلمة يا حبيبي.. واحكي للدني يا حبي

إنك إلي وإلَك قلبي

إلَك من قبل ما كان ومن بعد الزمان

هالقلب العشقان وشو بقلك كمان

والليلي غمرني بجنون.. خلي اللي ما كان يكون

وتقلَّك دمعة العيون

انتَ أنا.. روحي أنا.. بحبك أنا

للينطق كلانا مع صوت ماجدة الرومي: "حبيبي"

نذهب إلى الاسطبل ونجلس على مقعدنا المعتاد، مرة أخرى نعود إلى هنا بعد شهور من الغياب، إنه شعور لا يوصف، لحظة الوصول بعد سنين من التعب والغياب، لا أصدق، شعرت برجوع الزمن، حين أتيت إلى هنا من أجل التدريب على رسم الفرس لنحت مشروع تخرجي، وجدت (أصيل) هنا وعلمت منذ الوهلة الأولى إنه سيكون مختلفًا، رغم كل شيء حينها، فإنه ترك في قلبي نبرة صوته لكي تؤنس أرقي وهي تدور ببالي، رائحته الجميلة التي تمنيت وقتها أن أصورها كي أحتفظ بها حولي في كل آن ومكان، ملابسه التي لفتت انتباهي نظافتها وأناقتها وبساطتها، سعدت إنه سيكون مدربي، ليس فقط مدرب، فإن الصدفة التي جمعتني به بعد سنين كنا أمام بعضنا البعض، ولم ينتبه أحدنا إلى أن يحب الآخر، كان كل منا يكن احترامه في صمت، إني أسميت تلك

الصدفة؛ قدر، أجمل قدر يمكنه الحدوث لي، فإن الذي أخرني كل هذا عن قدوم تلك الخطوة، كان ذلك القدر الذي يريد أن يجمعنا، آمنت بحبه منذ اللحظة الأولى، وها نحن هنا، عدنا إلى هنا معًا مرة أخرى، إلى الأبد، وحتى تفنى الكواكب، سنظل ننظر إلى النجوم ونتأملها، أجدك تحدثها، طبيب، فارس جواد، وعالم فلك أيضًا، يحكي لي ما تقوله النجوم ليلًا، وتخبئه السحب صباحًا، لخجلها من كثرة النظر إليها.

يهمس إليَّ:

- كنت عاوز أقول لِك حاجة يا جميلة، انتِ بتفكريني بالكون

يبهجني صوته هنا، فإنني منذ كثيرًا لم أسمعه هنا في أقرب مكان إلى قلبي

- ليـه؟
- فيكِ النجوم والسحاب.. والشمس والقمر، جريئة زي النجوم بالليل، بتحكي كل اللي في قلبها وتعبر عن مشاعرها قدام الناس مابتتكسفش، وبتلمع، زي عنيكِ دلوقتي..

يصمت للحظة، لشعوره بأنه أخجلني.. ثم يكمل:

- في نفس الوقت أكبر خجولة شفتها في حياتي، زي القمر.. لما ببص له بيستخبى ورا السحاب، بتتكسفي من كتر ما ببص لها وبتسكتي، يعني أقول لها عينيكي بتلمع تبص في ناحية تانية، والله مايصحش كده!
- أنا مش عارفة أتكلم، بس أنا عاوزة أقول لك.. طب والشمس؟

- اللي بتنور حياتي!
- انت عارف إني بحبك؟ عمري ما كنت أتخيل إني أحب حد بالشكل ده، من يوم ما شفتك وأنا عرفت إنك مش هتعدي في حياتي مجرد عبور كده، اتمنيت من جوايا إننا نبقى مع بعض، بجد كنت بستنى المعاد اللي ممكن يجمعني بيك بشكل رسمي، كنت بقول لنفسي لو رحت له من غير مناسبة هقول حجة إيه؟ يوم ما سلمت عليَّ بإيدك كان من أحلى لحظات حياتي.. كنت بعدها بتلكك لأي حاجة ممكن تبعدني عنك إنها تروح، وبستعجل أي حاجة تقربني منك، أنا بلخبط في الكلام ومش عارفة بقول إيه، بس أنا بحبك، كفاية الضحكة الجميلة دي تفضل قدامي بس كده

يبتسم بعينين لامعتين:

- مش قلت لك زي النجوم، أنا هجيبك هنا كل يوم بالليل تقولي كل اللي في نفسك

يأتي إليَّ بحزمة أوراق خضراء، كإنه آت من السوق بعد شراء الخضروات، ليفاجئني:

- إيه ده يا أصيل؟
- نعناع، قلبت الدنيا على ورد، وبعدين قلت ما أنا هجيب لها ورد كتير، خليها تبدأ بحاجة مختلفة وأجيب نعناع

أبتسم بشدة، إن أفعاله المختلفة من أجمل الأشياء التي يمكن أن يكن عليها المرء، أن يصبح مختلفًا بكل هذا الجمال.

ونحن في قمة سعادتنا، سعادة عارمة، ليحملني ويدور من فرحته، ثم كلانا أقدامنا فوق الأرض، وجهًا إلى وجه، يجلس بركبة واحدة على الأرض، مثل أمراء أفلام الكرتون، ليقدم لي خاتم خطبتنا، وأنا لا أصدق هذا، مما يجعل أعين كلانا تتلألأ بها دموع الفر

عودة الشغف إلى الروح، تعادل إحياء حياة كاملة.

بعد مرور عام

كلية الفنون الجميلة، حلمي يتحقق الآن حين تُعلن نتيجة تحكيم مشاريع تخرج قسم النحت، إن المركز الأول من نصيب «جميلة رشاد»

أنا، اختارت أن يُعلن نتيجة نجاحي باسم جدي -رحمه الله- الذي أريد أن أنسب له كل شيء جميل في حياتي، وأمي، التي حين أذكر نعم الله، لا أكف عن ذكرها، إنها حقًّا أفضل نعمة.

تجلس هي أمامي، بجانبها (أصيل)، (ابراهيم)، طنط (روزيللا) وابنها (سانتينو) ، (رؤى)؛ (صابر)، (عم توفيق)، دكتوري المفضل (د.أحمد)، صديقي (صابر) وأخيرًا (حليم).

أقف وأمامي مشروع تخرجي، منحوتة «فارس چوانا» مكون من الفرس مِسك، يقودها (أصيل) وفوقها أجلس أنا، بيدي غيمة وعلى رأسي حمامة.

آمنت إن التأخير لا يحمل إلينا إلا كل خير، وإن انتظارنا للشيء، كلما طال، كلما اقترب ميقاته، ولكن بشكل أفضل بكثير مما كُنا نتخيل، فقط نتركها إلى الله ونسير في طريقنا، نمد أيادينا إلى الشيء، ونخطو حتى نقترب، وحين نقتري نقدم على خطوته، سيقترب إلينا، حتى يتحول الخيال إلى أجمل حقيقة.

بعد مرور عامين

في ليالي الشتاء الباردة، تدفأ القلوب، ويبدأ العام في الرحيل، يؤول كل شيء إلى النهاية، ليس كل شيء بالمعنى الحرفي، لكن تذهب بعض الأشياء الحزينة بعي ًدا ولن تعود، ليس إجبارًا، بل باختيارنا الشخصي تلك المرة. أؤمن إن كل نهاية ما هي إلا بداية، حتى لو لم يحدث أي إنجاز واضح، نملك الكثير من الإنجازات التي لم ننتبه لها قط، بمجرد أن يمر اليوم ونحن نشعر بأنفاسنا، نرى شيئًا أمامنا، أو نشعر بدفء كوب الشاي، فنحن على ما يرام، وذلك يعتبر إنجاز لم يشعر به إلا من يفتقد هذه النِعَم الثمينة، بالفعل موجود من يشعر بإنجاز لمجرد مرور اليوم وهو على قيد الحياة. الشعور بالرضا هو أهم إنجاز يمكن أن تحققه،

وتبدأ به أحلام، وتنهي السيء من يومك، ومن شهرك الماضي، وعامك الذي يوشك على الإنتهاء.

على قدر حجم الصحاب التي مرت علينا، أثرت بِنا، وأثرنا بها التأثير الأكبر، تغلبنا عليها، ويستمر البعض منهم لم نتغلب عليه بعد، الفرصة أمامنا الآن كي نتخلص من كل ما يؤذينا أي أذى بأي شكل، نتحدى أنفسنا لنبدأ عامًا جديدًا بنقاء تام، سلام داخلي ليعم في الخارج.

تقول أسطورة لم أعلم لها أصل: "إن الغائب الأحب لقلبك سيعود إليك في أحد أيام ديسمبر"، أحدهم قال عنها خُرافة، يمكننا تحويلها لحقيقة، ليس بالضروري أن ذلك الغائب هو شخص، يمكنها أن تكون أمنية ستتحقق، سعي على وشك الوصول، أو تخلص من سيء داخلنا، لكنه كان شخص بالنسبة لي، أتى (أصيل) بمثابة تلك النعمة التي غابت، ثم عادت كل مرة بعودة خفيفة كالسحب، لكنها عودة مستمرة، لن يغيب مرةً ثانية.

واجهنا معًا الكثير من التخبطات والتشتتات بين أحلامي، الفن، أم الكتابة، أم السينوغرافيا، أم العيش حياة سليمة لنفسي ومن أحبهم، أحلام كثيرة ليس لسمائها حدود، بعد كل تلك الحيرة، قررت ألا أتخلى عن أي حلم، سأكمل في كل شيء أحبه، لماذا نتخلى عن حلم واحد حتى؟ كي لا نتشتت! لكن هل نحيا حياة أخرى؟ أنتظر البقية في الجنة، فأنا ليس لأحلامي نهاية، هي في تزايد مستمر، سأكتفي بما ألحق به في تلك الحياة القصيرة، وأترك ما لا يأتي ببالي للحياة الأبدية الأخرى.

آمنت بأن كثيرٌ من القيود المحددة لنا ليست إلا وهمًا وفخًّا، أجبرنا على الوقوع بداخله، لا يصطاد إلا من يقع فيه برغبته، فمن يريد يستطيع، حتى وإن شعرنا بالرفض من الجميع، فقط نحتاج أن نؤمن بما نريده.

التقبل، عدم قولبة نفسي أو غيري في قالب غير حقيقي، فكل منا لو تمسك بحقيقته بكل عفوية وتلقائية، سيحظى بنفسه، ومن فعل العكس، سيكون هو الخاسر الوحيد.

الفرصة، شيء مهم، نعطيه للبعض مرارًا وتكرارًا، نحن الأحق بتلك الفرص المهدرة، من حق غيرنا أن يأخذ فرصة، أخرى أو ثالثة، حتى نشعر أن لأنفسنا حق علينا، فنحن نستحق التقدير، إذا وجدنا أنفسنا داخل علاقة -أيًّا كانت- تحمل بذل بدون رد فعل، أقله التقدير، فتلك العلاقة حتمية الزوال، زوال العلاقة، أم زوال روحنا في شيء لم يستحق أبدًا، علينا الآن بالانسحاب، الانسحاب أحيانًا يكون للشجعان، حين تشعر أنه ليس مكانك.

***

الإسكندرية منتصف ديسمبر

الصمت لغة جميلة، من يفهمها سيرى جمال العالم من حوله بشكل أسهل، والكلمة أيضًا من أهم ما نملك، يجب مراعاتها، فإنها إما تكن كنسيم الزهور تُطيب الخواطر وتزهر الأرواح، إما كالشوك المقذوف، تجعل ما حولها يذبل، وتمزقنا. الكلمة صاحبة التأثير الأكبر.

رزقني الله بنعمة كبيرة، هي القدرة على الحب، أنني أحب أسرتي الصغيرة، ومن يستحق حقًّا، ذلك الشعور يجعلني وكأن بوسعي احتواء الكون بأكمله.

لدينا القدرة على العطاء، الاستراحة، جبر الخواطر، الفن، البحث عن الجمال في كل شيء وإظهاره، الاطمئنان، تهدئة النفس، تتبع أشكال السحب، الجلوس فوق الرمال أمام الحطب المتقد مع من نحب في ليلة شتاء باردة، انتظار لحظة شروق الشمس وغروبها أمام السماء، الخشوع والتدبر في كل صلاة، وكأننا في عالم آخر، وخلفنا تصلي الملائكة.

فلدينا القدرة على تغيير العالم، ونحن فقط في غفلة عن ذلك، كلما شعرنا أن ذلك مستحيل؛ فبالتأكيد لن يتحقق أبدًا إلا إذا آمنَّا به.

إن تخلُّصنا من أغلب العلاقات المؤذية في حياتنا يعتبر إنجازًا.

مساعدتنا للآخر لن تنقص منا شيئًا، بل تزيد، إلا لو تدهور بهم الحال إلى الاستغلال، فهم في تلك الحالة؛ أقرب للدناءة من أي شيء آخر، في كلتا الحالتين، من يتحلى بصفة العطاء فإنه أثمن الأرواح، وأول الفائزين.

ليست سذاجة أبدًا؛ العطاء، منح الثقة، والتغافل.

طمأنة الشعور بسيطة، وسائلها بسيطة بشدة مثلها، يمكن لحروف قصيرة أن تطمئن شعورًا كان مضطربًا بشدة، وهدأ بعدها مباشرةً.

قرأت جملة آمنت بها، بما فيها: «إن وردة واحدة لشخص على قيد الحياة، أفضل بكثير من باقة زهور على قبره.»

والشُكر حق لكل شخص يعطي لنا خدمة ولو ضمن عمله، فنحن جميعًا نخدم بعضنا البعض، عندما نذهب لنشتري زهرة، أم باقة بطاطس مقلية، حافظة مناديل أو أي شيء آخر، شكرًا للبائع، شكرًا للسائق، لأصحاب المهم، للفنان، للأهل، للآباء المحترمة، وكل الشكر للأم التي تكمن الحياة بداخلها.

أنا الآن بكامل طاقتي، بعد تلك الإنجازات الصغيرة التي لم أعلم هل تشغل حيز من تفكير الآخرين أم لا، لكنها هي حافزي وصاحبة دافعيتي كي أضاعفها فيما بعد، قادرة على التصالح مع الذات ومع كل شخص وشيء آخر. معي أجمل ما رجوت. شكرًا لمن يعلمون أنهم الحياة، ونعمة كل يوم. كل عام وانتم أجمل انتصار. في ديسمبر تبدأ الأحلام.

***

استطيع أن استيقظ الآن وهو أمامي، كنت قد غفوت على الأريكة بالخارج، تذكرت كل لحظة مرت معه، حين استيقظت ورأيته، حلمت يومًا أن يجمعنا بيت واحد، غرفتنا هي نفس الغرفة، ملابسه في خِزانتي، تتناغم كل أشيائنا، للمرة الأولى التي رأيته بها، علمت إنه لن يكن مثل البقية، سيكون أثره مختلفًا على قلبي، وبالفعل حدث ذلك. للمرة الأولى، وجدت شعورًا بداخلي لم يحدث لشخص من قبله، أردت أن أتابع حركات يده في ربط الأشياء، جفونه في نصف عينه لنظره إلى الأشياء بتركيز، رسمة حاجبه وتحركاته أثناء الانغماس في شيء، نظرة عينيه الساحرة، التي كنت ألاحظ مراقبتها لي، وسرعة تغيير اتجاهها حين أنتبه، للمرة الأولى الذي أمسك بيدي فيها من أجل تعليمي شيء أو وصفه لي كيف أساعده.

رأيت معه كيف يمكنه بنظرة مني أن يقلب العالم رأسًا على عقب ليعيد ترتيبه من أجلي. هو الذي لم يحاول السير أمامي ويتركني خلفه، ولم يسير ورائي ليتلاشى تمامًا، إنما يبطئ سيره، يقلل خطوته، كي نسير جنبًا إلى جنب، لم يتقمص دور الأب أو الابن، بل أصبح الحبيب، وكل شيء. لم يحاول أن يفهمني، هو احتواني، وتجرأ معي، تعلمت معه جمال المجازفة، أن يجازف المرء من أجل شيء يحبه، من أجل الشعور بوجوده، بمجرد وجود من يحب حوله، أقنعني إن سيدات المجلات صورة، وإنه يكره التصنع، فإن رآني بمستحضرات تجميل تليق بي، أو بدونها، سيظل يراني الأجمل، تلك الثقة مهمة من شريك حياتي، الكلمة أصبحت ذات معنى كبير عميق وبسيط معه، والصمت أيضًا. يقدر كل ما تفعله يدي، ويقوله فكري، ويبكي من أجله قلبي، وترسم بسببه بسمة وجهي. إنه رجلًا؛ يحمل كل ما اجتمع في العالم من قوة، لكنه

يحمل رقة، حين يكون هشًّا أكن أنا قادرة على ترميم روحه، فقط بعناق.

قال لي ذات مرة ألا أغير، فإن الغيرة ترهق قلبي، وهي بلا جدوى، فإن ثقتي به في محلها، لا بأس ببضع من الغيرة.

كوخ، بيت، قصر، لا يهم، المهم هو وجود الحب بيننا، قادر على بناء كل شيء. صدقه يضفي جمالًا على كل شيء، يخبر أنوثتي أن ليس لها علاقة بالضعف أو الميوعة.

لم أجد مثله، لا أقول أقل أو أفضل، فإنه لا يقارن برجل آخر، أحب وأحترم لحظات قوته، وضعفه أيضًا، حين يترك العالم كله ويأتي إليَّ، حين أحمل جميع همومه ثم أرميها بعيدًا، وأرمم مكانها، أزرع داخل شقوق ندباتها زهرًا. هو يقدر الكلمة، ليس مثل الذي يبتلع كلماته بخلًا وخوفًا من أن تهتز رجولته، لإنه يعلم جيِّدًا أن قوامته، في أماني.

تعلمنا بعض الأكلات الشهية. وراقبنا السحب. رقصنا كثيرًا، علمت إننا لا نجد أفضل ممن نستطيع أن نكن أنفسنا معه، على سجيتنا أمامه. كان اتفاقنا أن ننجب بعد سنتين، وقبل مرور عام، أصبحت أحمل بداخلي طفلنا، هكذا اعتدنا ألا نضع قواعد، قاعدتنا الوحيدة هي إن مهما حدث، نكون قادرين على الحب، ونظل معًا.

برغم الإعادة والتكرار لأمور الحياة وظروفها، للمرة الأولى، أشعر أن علينا الشعور. للمرة الأولى تجد الوحيد الذي يمكنه تهدئة قلبك بكل خفة، من وجدك تتعثر فسقط بجانبك ليرى ضحكتك معه، ثم يستند كل منكما على الآخر لينهض به ومعه. إنه استطاع أن يحيطني بذراعيه،

ويبدد كل ما بي من ندبات جروح سابقة من أحلام تائهة، بعد سنين من الهروب، وجدت مأمني. حسنًا؛ للمرة الأولى، يشعر قلبي بالأمان.

تذكرت كلمة (أصيل) عندما كنا نجلس في الروف الخاص بي، ننظر إلى السماء، ونتسامر، أحكي له ما مر في حياتي، أو ما أتذكره، انتبهت فوجدته ينظر إليَّ ويقول بتنهيدة خفيفة، تقطع حديثي :

"صدقيني الوقت هيعرفك الحكمة من كل ده"

مد يده إلى يدي حتى يحتضنها، وكعادته يبتسم ابتسامته الهادئة ثم يقول: "مش هناكل ولا إيه؟" ليأخذني من تلك الدراما التي لا يحبها، ولا يراني بها، لكنه يسمعني، يسمعني للحد الذي يجعلني أشك في قدرته على قراءة الأفكار، لم يحاول أن يفهمني بالقدر الذي يغمرني السعادة به، يستطيع إحتوائي بكل ما أوتيت، ليس احتواء فقط، فالاحتواء يعطي الأمان، يشعل الدفء، لكني لا أراه يضيف المشاعر الجديدة، لا يجددها، إن شعوري به شعور خاص، النظر في عينيه ذات التجاعيد البسيطة التي تخبئها بعض من الرموش الكثيفة؛ شعور يصعب عليَّ وصفه، إنه أكبر من الاحتواء بكثير.

***

والآن؛ يمكنني القول بإن الحياة ممكنة، وما يجعلها هكذا هي الأشياء البسيطة الجميلة، يكمن جمالها في أن تطمئن.

لأقوم وأضع الاسطوانة على مدور اسطوانات، ضبط سن جرامافون بيتنا.. تخرج نغمات عبد الوهاب..

كُل ده كـان ليـه؟ لما شُفت عينيـه

ملاذنا الأمان؛ هُناك شيء بداخل كل شيء، تفرعات وطرق مختلفة الاتجاه، أماني كثيرة، وأهداف ليس لها آخر، كل هذا ينحصر داخل الأمان.

شكر خاص إلى..

عائلتي؛ الوتد الذي استند عليه. إلى كل شخص صادق في حياتي. كل قارئ، وكل من كان مصدر دعم وتشجيع إليَّ، منذ بدايتي، من أصغر إلى أكبر قول وفعل. لكم مني جزيل الشكر.

آلاء السَّقا . .